الرشد الاجتماعي

رؤية قرآنية

ح أطياف للنشروالتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الصفار، حسن موسى
الرشد الاجتماعي رؤية قرآنية. / حسن موسى الصفار. ـ القطيف، ١٤٤١هـ
١٩٠ ص، ..سم
ردمك: ١-٢٩-٨٢٨١-٦٠٣-٩٧٨
١. التربية الإسلامية ٢. القرآن ـ مباحث عامة أ. العنوان
ديوي ١, ٣٧٧ ١٤٤١/٢٧١٩
رقم الإيداع: ١٤٤١/٢٧١٩
ردمك: ١-٢٩-٨٢٨١-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثانية

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

أطياف للنشر والتوزيع
Atiyaf For Pub. & Dist.
المملكة العربية السعودية - القطيف - تلفاكس: 00966138549545
atyaf.qatif@gmail.com

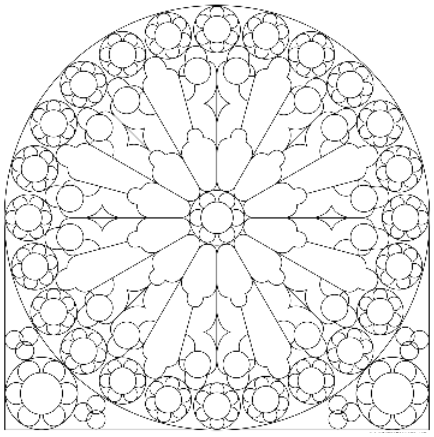

الرشد الاجتماعي

رؤية قرآنية

حسن بن موسى الصفار

مفتتح

القرآن الكريم ليس كتابًا أكاديميًا تخصصيًا تقتصر الاستفادة منه على العلماء والمتخصصين، بل هو كتاب أنزله الله للناس، يقول تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [سورة الزمر، الآية: ٤١]، وقد وصفه تعالى بأنه: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٨٥]، وأنه: ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٣٨]، وأنه: ﴿بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ﴾ [سورة إبراهيم، الآية: ٥٢]، وأن فيه: ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ [سورة إبراهيم، الآية: ٢٥]، وأنه: ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ [سورة القصص، الآية: ٤٣].

إلى آيات كثيرة تؤكد أن القرآن خطاب من الله لكل الناس، فعلى كل إنسان أن يستقبل هذا الخطاب الإلهي باعتباره موجهًا إليه، ويتعامل معه على هذا الأساس، فيجتهد في فهمه، ويهتدي به في حياته وسلوكه.

لكن المؤسف أن عامة المسلمين يغفلون عن هذه الحقيقة، ويكتفون بقراءة القرآن الكريم للتعبد والبركة، ويكلون فهمه إلى العلماء والمتخصصين. مع أن القرآن الكريم يدعو الجميع للتأمل والتدبر في آياته، حيث يقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [سورة النساء، الآية: ٨٢]، ويقول تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [سورة ص، الآية: ٢٩].

إن كل إنسان يمكنه أن يستفيد من القرآن بقدر استعداده وإدراكه، وكلما كان

أكثر استعدادًا وكفاءة، كان أكثر استفادة وتحصيلًا.

والعلماء والفقهاء هم الأقدر على استنباط الأحكام الشرعية لتأهيلهم العلمي، وبحثهم في مجموع الآيات القرآنية، ومصادر التشريع الأخرى.

إن آيات القرآن تخاطب فطرة الإنســـان، وتستثير عقله، وتعالج ما يعرض على نفســـه من حالات وتقلبات، وتقوّم ما يصدر عنه من ممارسات وتصرفات، ليختار طريقه، ويتخذ قراره، ببصيرة ووعي.

ولأن أهم تحدٍ يواجهه الإنســـان هو تحدي التعامل مع أبناء جنسه، والعلاقة مع محيطه الاجتماعي، لذلك اتســـع نطاق الآيات القرآنية المهتمة بمعالجة هذا البعد في حياة الإنسان.

وهذه الصفحـــات بين يدي القارئ الكريم، تضم شـــيئًا من التأملات، كنت قد ألقيتها كدروس ومحاضرات حول بعض آيات القرآن الكريم، مما يتصل بالعلاقات الاجتماعية، من أجل ترشـــيدها والارتقاء بها إلى مستوى النضج والرشد، وتجاوز تأثيرات النوازع الأنانية والتعصبية والانفعالية.

أرجو أن يكون في نشرها ما يسهم في خدمة الوعي والثقافة الاجتماعية.

والله ولي التوفيق،،

حسن الصفار

24 ذو القعدة 1440هـ

27 يوليو 2019م

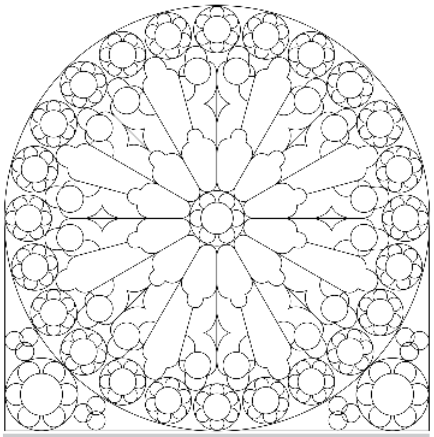

الفصل الأول

أفلا يتدبرون القرآن

تدبُّر الأمر: تأمُّله، والنظر في أدباره وما يؤول إليه في عاقبته ومنتهاه، ثم استعمل في كلّ تأمل؛ فمعنى تدبر القرآن: تأمّل معانيه وتبصّر ما فيه. والتدبر: التفهم في دبر الأمر، أي ما يخفى منه، وهو مشتق من دبر الشيء، أي خلفه.

والآية الكريمة قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[سورة محمد، الآية: ٢٤] جاءت في سياق الحديث عن المنافقين، الذين يستمعون آيات القرآن ويتلونها لكنهم لا يتفاعلون مع مراميها ومقاصدها.

والأقفال: جمع قفل، وهي في الأصل من مادة القفل، أي الرجوع، أو من القفيل: أي الأشياء اليابسة، ولما كان المتعارف أنهم إذا أغلقوا الباب قفلوه بقفل، فكلّ من يأتي يقفل راجعًا، ولما كان ما يقفل به موجود صلب لا ينفذ فيه شيء، وهو ما يوصد به الباب ليمنع الآخرين عن دخوله واجتيازه، كانت هذه استعارة لقلب الإنسان الذي انصرف عن حقيقة المعرفة، حتى ختم الله على قلبه، وجعله مقفلًا لا يستقبل معنى القرآن وعظمته.

وقفيل: ما يبس من الزرع، فما عاد ينتفع بأشعة الشمس ولا بالهواء، وعلى هذا تكون الاستعارة على معنى أن القلب إذا أهمل كتاب ربه، فلم يتدبّر معانيه، وأغراض آياته، فكأنه شجرة يابسة افتقدت نضارتها وقوتها، فما عادت تنتفع بما

حولها من تربة وماء وضياء.

وشبيه بهذا السياق جاءت الآية الأخرى في سورة النساء ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء، الآية:٨٢].

أما الآيات التي أشارت إلى ضرورة تدبر القرآن الكريم، ولزوم الأخذ به، فقد احتلّت حيّزًا واسعًا من القرآن، كقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة صّ، الآية:٢٩].

القراءة السطحية

إن كافّة المسلمين يقرؤون القرآن ويعظمونه، لكن من المؤسف جدًّا أن هذه القراءة تبقى قراءة سطحية قشرية ظاهرية، لا ننفذ من خلالها إلى معاني القرآن ومضامينه، من هنا تجد أن حياة المسلمين في غالبهم تصطدم اصطدامًا واضحًا وظاهرًا مع آيات القرآن، يقرؤون القرآن لكن ليس هناك تفاعل مع توجيهاته، لأن أول مرحلة من مراحل التفاعل مع القرآن فهم معنى الآية، أن يتدبر في الآية ليعرف النتيجة التي تريد أن توصله إليها؛ لأنّ التدبر من دبر الشيء ومن خلفيته وما يؤول إليه، لكن عامة الناس لا يكلفون أنفسهم جهدًا من أجل أن يفهموا معاني الآيات، فيقرأ القرآن في الفواتح، في الصلاة، في المناسبات.. ولكن لا يكاد يكون هناك تأثير لهذه القراءة على واقع حياة هؤلاء القارئين، ومن أهم الأسباب أنهم يقرؤون ولا يفهمون، أشبه شيء بإنسان يقرأ كلمات من لغة أخرى تعبّدًا، كما يقرؤه غير العربي للتعبّد وإن كان لا يعرف معناه.

هل نستطيع فهم آيات القرآن؟

وهناك ثقافة كرّست هذه الحالة، وهي القول بأن الإنسان العادي لا يستطيع أن يفهم معاني القرآن، والعلماء والمفسرون هم فقط من يعلم معانيه، هذه الثقافة هي التي باعدت بين الناس وبين التدبّر في القرآن الكريم، وهي ثقافة خطأ، القرآن

الكريم يدعو الناس ـ كلّ الناس ـ إلى تدبّره والتأمّل فيه، فالله سبحانه يقول: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة صّ، الآية:٢٩]. فإنما أنزل القرآن لا لتقرأ آياته، ويتبرك بها فقط، وإنما ليدّبروا، وليفهموا معاني هذه الآيات، وخلفيات هذه الكلمات.

قد يقول البعض إن آيات القرآن غامضة لا نستطيع نحن أن نفهمها، هناك شيء من الصحة النسبية في هذه المقولة، بسبب المشكلة اللغوية التي باعدت بيننا وبين لغة القرآن الكريم، و تبدلت على إثرها معاني بعض الكلمات، لكن هذا قد يصدق على بعض الكلمات وبعض الآيات، ولا يصدق على الأكثر منها، والقرآن الكريم يردّ هذا المعنى بكلّ قوة وهو يقول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [سورة القمر، الآيات:١٧ ـ ٢٢ ـ ٣٢ ـ ٤٠] فالقرآن ليس غامضًا وليس معقّدًا وليس صعبًا، وهذه الآية الكريمة في سورة القمر تكرّرت أربع مرات، وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٣٨] فهو لكلّ الناس وليس لنخبة من الناس وهم العلماء، ومن ذلك قول الإمام زين العابدين عليه السلام: «آيَاتُ الْقُرْآنِ خَزَائِنُ، فَكُلَّمَا فُتِحَتْ خِزَانَةٌ، يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَنْظُرَ مَا فِيهَا»[١].

نعم آيات الأحكام قد يحتاج الإنسان إلى مقدرة وخبرة حتى يتمكّن من استنباط الحكم الشرعي منها، ولكن حتى بعض آيات الأحكام يمكن أن يفهمها الإنسان العادي لأنها واضحة، وفي رواية أن عبد الأعلى مولى آل سام قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: عَثَرْتُ، فَانْقَطَعَ ظُفُرِي فَجَعَلْتُ عَلَى إِصْبَعِي مَرَارَةً فَكَيْفَ أَصْنَعُ بِالْوُضُوءِ؟ فَقَالَ: «تَعْرِفُ هَذَا وَأَشْبَاهَهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ امْسَحْ عَلَيْهِ»[٢].

فالإمام يعلمه كيف يستنبط الحكم الشرعي هنا ـ وليس هذا الحكم فقط، بل

(١) محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج٢، ص٩٠٦، حديث٢.
(٢) محمد بن الحسن الطوسي، تهذيب الأحكام، ج١، ص٣٦٣، حديث ١٠٩٧.

(هذا وأشباهه) ـ فبإمكان كل مسلم أن يأخذ بهذه القاعدة العامة ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، وأيّ حكم ديني يكون في تطبيقه حرج على الإنسان، فإن الله تعالى لا يأمره أن يطبقه بتلك الصورة الحرجية، وإنما ينتقل تكليفه إلى الصورة التي لا تسبب له حرجًا، وقد أشار الشيخ الطبرسي في مجمع البيان إلى أن في آية التدبّر «دلالة على بطلان قول من قال: لا يجوز تفسير شيءٍ من ظاهر القرآن، إلا بخبر وسمع»[1].

إنّ القرآن الكريم يؤكّد أنه نزل للتطبيق لا للتنظير، نزل لإسعاد البشرية واستنقاذها من براثن الشيطان الرجيم، وأغلال التراب، من التكبر في الأرض، من الجهل والتخلف والهوى.

التدبر مطلوب من الجميع

والآية الشريفة ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ إذ تأمرنا بالتدبر في كتاب الله لم تحدّد فئة المتدبرين، معلنة بذلك أن القرآن شرعة لجميع البشر، والواجب عليهم ـ جميعهم ـ أن يتدبروا فيه ويستخرجوا كنوزه، ويستظلّوا بظله. ولو رجعنا إلى واقعنا العملي اليوم لوجدنا حظّنا من تدبر القرآن ضئيلًا جدًّا، بقدر ضآلة حظّنا من الحضارة، وهذا من سنن الله سبحانه ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية:٩٦].

ولو قارنّا أوضاعنا بأوضاع الأمم الأخرى، لوجدنا أنفسنا في جوانب كثيرة مسلمين بلا إسلام، بينما يتمتع غيرنا بتطبيق كثير من السنن التي أكّدها الإسلام، ويعيش غيرنا حالة الإسلام ولا مسلمين، ذلك لأننا نجد عندهم روح التدبر والتأمل في كلّ شأنٍ من شؤون الحياة، يتأملون في الذَّرة كما يتأملون في المجرّة، ويكتشفون

(١) الشيخ الطبرسي: مجمع البيان، ج٩، ص١٧٤.

السـنن الكونية التي أمرنا القرآن بالتدبر فيها، ويطبقون السلوك القرآني الذي نادى به القرآن، من التنظيم والاحترام وتحمل المسؤوليات، وهذا ليس مدحًا فيهم على إطلاقه، وإنما نحتاج لأن ننظر إلى العالم بنظرة واقعية، لنأخذ الجيّد ونترك الخبيث كما يأمرنا القرآن الحكيم.

إننـا بحاجة إلى الاقتراب من آيات القرآن الكريم، وأن تكون لدينا ثقة بأنفسـنا أننا قادرون على تفهّم آيات القرآن، وأن نطبّقها على أرض واقعنا، والله يحثنا على ذلك ويعيننا عليه ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [سورة القمر، الآية:١٧].

ويمكننا أن نشـير في نقاط موجزة إلى ما يمكننا أن نصل إليه عبر التدبر والتفكر في مضامين القرآن الكريم:

- التدبر في القرآن يعني الاسـتفادة من آياته والتأثر بها ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُـولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [سورة المائدة، الآية:٨٣].
- التدبـر في القرآن يعني فهم قيمه وأفكاره ومبادئـه ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُـبُلَ السَّـلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَـاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِـهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ﴾ [سـورة المائدة، الآيتان:١٥-١٦].
- التدبر في القرآن يعني معالجة المشاكل الإنسانية بطريقة قرآنية ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِـفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [سورة الإسراء، الآية:٨٢].
- التدبر في القرآن يعني العمل بما فيه ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة ص، الآية:٢٩].

القرآن المهجور

الهجر في اللغة: هو ترك ما من شأنه أن يوصل.

فأيّ جهة كان ينبغي أن تكــون على صلة معها ثم تتركها يقال لك هجرتها، ولا يقال لمن لم تعرفه أنك هجرته.

وفي هذه الآية يشــكو الرسول ﷺ إلى الله تعالى من هجر قومه للقرآن العظيم، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُــولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾، وإنما قال ســبحانه ﴿اتَّخَذُوا﴾ ولم يقل (هجــروا) ليدلّل علــى أن الهجر صار ديدنهم ومنهجهم وطريقتهم في التعاطي مع القرآن العظيم.

وقد اختلف المفسرون في المدلول الزمني لهذه الآية، فهل حدثت هذه الشكوى في زمن النبي ﷺ أم أنه سيرفعها إلى الله في يوم القيامة؟

فبعض المفسّــرين قالوا بأنها حصلت عندما كان الرســول ﷺ يقرأ على قومه القرآن وهم يســتنكفون عن الاستماع إليه، كما يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [سورة فصلت، الآية: ٢٦].

لكن عددًا من المفسّــرين يُرجّحون أن تكون هذه الشــكوى يــوم القيامة، وأن الفعل (وقال) فعل ماضٍ، لكنه يدلّ على تحقق ما سيقع في المستقبل، إنزالًا لمنزلة

ما سيقع حتمًا بمنزلة ما وقع فعلًا، وهذا ما يستفاد من السياق العام للآية إذ يقول سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَـٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [سورة الفرقان، الآيات: ٢٨ ـ ٣٠].

والروايات تؤكّد مثل ذلك أيضًا، وتُندّد بأولئك الذين يهجرون القرآن.

فقد ورد عن الفضل بن شاذان أنه سمع الإمام الرضا عليه السلام يقول مرّة بعد مرّة: «فإن قال: فَلِمَ أمُرِوا بالقراءة في الصلاة؟ قيل: لئلّا يكون القرآن مهجورًا مضيّعًا وليكون محفوظًا فلا يضمحلّ ولا يُجهل».

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: أَنَا أَوَّلُ وَافِدٍ عَلَى الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَكِتَابُهُ وَأَهْلُ بَيْتِي ثُمَّ أُمَّتِي ثُمَّ أَسْأَلُهُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَ بِأَهْلِ بَيْتِي».

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «السُّورَةُ تَكُونُ مَعَ الرَّجُلِ قَدْ قَرَأَهَا ثُمَّ تَرَكَهَا فَتَأْتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ وَتُسَلِّمُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ مَنْ أَنْتِ فَتَقُولُ أَنَا سُورَةُ كَذَا وَكَذَا فَلَوْ أَنَّكَ تَمَسَّكْتَ بِي وَأَخَذْتَ بِي لَأَنْزَلْتُكَ هَذِهِ الدَّرَجَةَ».

وعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: «الْقُرْآنُ عَهْدُ اللَّهِ إِلَى خَلْقِهِ فَقَدْ يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ الْمُسْلِمِ أَنْ يَنْظُرَ فِي عَهْدِهِ وَأَنْ يَقْرَأَ مِنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ خَمْسِينَ آيَةً».

وهجر القرآن يقابله الاهتمام به، ويمكن ملاحظة الأمر في اتجاهين:

هجر التلاوة والحفظ

هناك فئة من الناس تقبل على القرآن باحترام شديد، فتقرأه في كل حين، وتحاول حفظه ونشره بين الناس، وهذا مصداق واضح على الاهتمام بالقرآن، على العكس من ذلك الذي لا يحترم القرآن، ولا يقرؤه، ولا ينظر فيه، ولا يحفظ منه

شيئًا، وعلى هذا ينبغي أن يكون لدى المسلم برنامج يومي لقراءة القرآن الكريم، وهذا ما كان عليه آباؤنا وما ينبغي أن نربي عليه أولادنا، وفي الرواية عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الصادق عليه السلام قَالَ: «مَا يَمْنَعُ التَّاجِرَ مِنْكُمُ الْمَشْغُولَ فِي سُوقِهِ إِذَا رَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ أَنْ لا يَنَامَ حَتَّى يَقْرَأَ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ فَتُكْتَبَ لَهُ مَكَانَ كُلِّ آيَةٍ يَقْرَؤُهَا عَشْرُ حَسَنَاتٍ وَ يُمْحَى عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ» وهكذا ينام الإنسان وهو مشغول بذكر الله، كما أن تلك القراءة تساعده على فهم وتدبّر ما عاشه اليوم وما يرجوه غدًا، والإنسان الذي يمرّ عليه اليوم والأسبوع دون أن يفتح القرآن أو يستمع له، يعتبر هاجرًا للقرآن، والنبي صلى الله عليه وآله يقف في وجهه يوم القيامة قائلًا، لماذا رتبت أولوياتك اليومية من نوم وغذاء وجلسات ومشاهدة وسماع، ولم تخصّص للقرآن حصّة من وقتك! لماذا لم تقرأ!! لم تسمع!!

على أن بعض الناس يدّعي أن القراءة دون التدبر لا تفيد شيئًا، فبإمكان هؤلاء أن تكون لهم قراءتان للقرآن قراءة طولية، وقراءة معمّقة، ويستحق القرآن أنْ نقرأه لأكثر من هدف.

الهجر المعنوي

لعلّ هذا العصر هو من أزهى عصور الاهتمام بالقرآن الكريم، إذ تنوعت مظاهر هذا الاهتمام، واتسعت رقعتها، وتكثفت فاعليتها، فهناك أكثر من (٢٥) إذاعة مختصة ببث تلاوة القرآن، والبرامج المرتبطة به، في كل من: السعودية، إيران، مصر، المغرب، والجزائر، وتونس، اليمن، الأردن، السودان، عمان، الإمارات، الكويت، البحرين.

وأصبحت نسخ المصحف الشريف متوفرة بمختلف اللغات، وبكميات كبيرة، فهناك مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، وهو من أكبر المجمعات الطباعية في العالم، يقوم على مساحة قدرها ٢٥٠,٠٠٠م٢، ويعمل فيه نحو

ألفي شـــخص، وتصل الطاقة الإنتاجية للمجمع إلى ١٣ مليون نسخة من مختلف الإصدارات سنويًا، وزادت الكميات التي أنتجها المجمع عن (٣٢٠) مليون نسخة، وبلغت ترجمة معاني القرآن الكريم لـ (٧٨) ترجمة[١].

وفـــي هذا العصر برز قـــرّاء مبدعون تمكنوا من الأخذ بمجامـــع القلوب، برقة أصواتهم، وحســـن تلاوتهم، كما ظهر الألوف بل عشـــرات الألوف من المهتمين بحفظ القـــرآن الكريم كامـــلًا، حيث تقام لهم المســـابقات في مختلـــف البلدان الإسلامية.

وهنـــاك آلاف المدارس والمراكز لتعليم القرآن وتحفيظـــه، وقد انبثقت أخيرًا (الهيئة العامة لتحفيظ القرآن) التابعة لرابطة العالم الإسلامي، ولديها برنامج واسع لتحفيظ القرآن يتكفـــل عددًا من الحلقات والمدارس القرآنية في أكثر من ٦٥ دولة وعدد ٧٢ معهدًا قرآنيًّا متخصّصًا، عدد طلابها يتجاوز مئة ألف طالب وطالبة، جاوز عدد الحفظة (٦٣) ألف حافظ وحافظة للقرآن الكريم في مختلف دول العالم[٢].

إلى جانب مؤسســـات ومراكز عديدة تهتم بمجالات مختلفة من شؤون القرآن الكريم، ولا شك أن هذه المظاهر من الاهتمام بكتاب اللَّه العزيز تثلج صدر الإنسان المسلم، وتزيده فخرًا واعتزازًا.

لكن السؤال الذي يفرض نفسه: هل تؤدّي هذه الأنشطة والمظاهر ـ على أهميتها ـ وظيفة المسلمين ومسؤوليتهم تجاه القرآن؟! وهل يخرجون بها من دائرة شكوى رسول اللَّه ﷺ إلى ربه عن هجر قومه للقرآن؟

---

(١) صحيفة المدينة، (٣٢٠ مليون نسخة لـ «مجمع طباعة المصحف» بـ ٧٨ لغة) الاثنين ١٣ يوليو ٢٠١٩م.
(٢) صحيفة الجزيرة، (٦٣ ألف حافظ وحافظة للقرآن الكريم في مختلف دول العالم)، الجمعة ٢١ يونيو ٢٠١٩م.

اتخذوا القرآن مهجورًا

أخبر القرآن الكريم أن رسول اللَّه ﷺ يتقدم شاكيًا إلى ربه عن هجر الناس للقرآن، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٣٠] والهجر هو الترك والإعراض، والتعبير بقوله ﴿اتَّخَذُوا﴾ يعني أن الإعراض عن القرآن أصبح منهجية وطريقة معتمدة لديهم.

إن تعامل الإنسان مع أيّ رسالة تصله يتأثر بمكانة مرسلها في نفسه، فإذا كان المرسل مهمًّا لديه، وعزيزًا عليه، تنال عنده أكبر مستوى من الاهتمام، أما إذا كان المرسل عاديًّا وغير مهم في نظره، فنصيب رسالته سيكون الإهمال والإعراض.

وكمسلمين، فإننا نعتقد أن القرآن الكريم رسالة من اللَّه إلينا وإلى الناس أجمعين، فكيف يصحّ لنا إهمال هذه الرسالة التي تفضل علينا بإرسالها خالقنا ورازقنا، ومن بيده حياتنا وموتنا؟!

والرسالة (القرآن) لا تتضمن أي طلبات لخدمة الرب جلَّ وعلا، فهو الغني عن العالمين، وإنما هي نهج نور وهداية، تضيء للإنسان درب حياته، وترشده إلى خيره وسعادته: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١٠].

فما هو مبرر الإعراض إذن عن رسالة عظيمة من مصدر عظيم؟!

مضامين القرآن ومناهجه

إن للقرآن الكريم جانبين: جانب الشكل ويتمثل في ألفاظ وكلمات آياته المجموعة بين دفتي المصحف الشريف، وجانب المضمون ويتمثل في القيم والمناهج والتشريعات التي تحملها آيات القرآن الكريم.

وإذا كانت العناية بصورة القرآن الخارجية ككلمات وألفاظ أمرًا مطلوبًا، من حيث القراءة والحفظ والتلاوة والتفسير والنشر، إلّا أنه لا يصحّ الاكتفاء بذلك عن

مرحلة الاستجابة لمضامين القرآن، بالتزام القيم التي يبشّر بها، وتفعيل المناهج التي يدعو إليها، وتطبيق التشريعات الإلهية التي يطرحها.

بل إن قيمة القراءة والحفظ لآيات القرآن إنما تأتي من قصد الاهتداء بها، وتجسيد معانيها في واقع الحياة. وإذا تجردت تلاوة القرآن وحفظه من جانب الالتزام العملي التطبيقي، فإنها تستلزم سخط اللَّه تعالى وغضبه، وهذا ما تصرح به آيات القرآن، ونصوص الأحاديث والروايات.

إن القرآن يوجه توبيخًا عنيفًا للذين يتلون آياته، لكنهم غير ملتزمين بقيم الخير والبر، يقول تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٤٤].

ويذمّ القرآن الكريم أتباع الديانات السابقة الذين يتراشقون فيما بينهم بالاتهامات، ولا يتخلّقون بالتعاليم الأخلاقية التي يقرؤونها في كتبهم المقدسة، يقول تعالى: ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتْ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١١٣].

إن القرآن الكريم يحمل للبشرية أفضل مشروع للتقدم والسعادة، والأمة التي تتبنى هذا القرآن وتحمله، يجب أن تقدم بواقعها العملي المجسّد لمفاهيم القرآن، نموذجًا مثاليًّا يستقطب سائر الأمم، ويجتذبها نحو منهج القرآن. لكن المؤسف حقًّا هو المسافة الكبيرة الفاصلة بين واقع الأمة وهدي القرآن العظيم، فهي تعيش حياة التخلف والشقاء في الكثير من الجوانب، دون أن تستفيد من نور القرآن، وأشعته الهادية، مما يجعلها شبيهة بما حكاه القرآن الكريم عن اليهود، الذين أنزل اللَّه تعالى عليهم التوراة، لكنهم لم يتحملوا مسؤوليتهم تجاهها. يقول تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [سورة الجمعة، الآية: ٥].

وما عسى أن يستفيد الحمار من حمله لأسفار العلم والمعرفة، وهو لا يمتلك

قابلية الفهم، ولا إمكانية الاستفادة؟! كذلك هو حال الأمة التي تحمل أفضل الكتب الإلهية، والرسالات السماوية، لكنها لا تتوفر لديها إرادة الالتزام والتطبيق.

ويتحدث القرآن عمّن تتلى عليه آيات القرآن، لكنه لا يستجيب لها، ولا يكيّف حياته وفق هديها، بل يستمر على منهجه الخطأ، وطريقه المنحرف، كأن صوت السماء لم يبلغ سمعه، أو كأن في أذنه صممًا يمنعه من السماع، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة لقمان، الآية: ٧].

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة الجاثية، الآية: ٨]، صحيح أن هذه الآيات وردت في سياق الحديث عن الكافرين الذين رفضوا قبول الإسلام، لكنها تتحدث عن موقف سيئ في التعامل مع آيات الذكر الحكيم، بتجاهلها والإصرار على مخالفتها، والمتسم بهذه الصفة يستحق عذاب اللّه الأليم، وإن كان يصنّف نفسه ضمن المسلمين والمؤمنين.

أما الأحاديث والروايات التي تحذِّر من إهمال تطبيق القرآن، والاكتفاء بمظاهر الاهتمام به، فهي كثيرة جدًا، نذكر منها بعض النماذج:

أورد ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ﴾ عن ابن عباس وعن عبد اللّه بن مسعود قالا: حقّ اتّباعه[١].

وعن أنس عن رسول اللّه ﷺ قال: «ليس القرآن بالتلاوة، ولا العلم بالرواية، ولكن القرآن بالهداية، والعلم بالدراية»[٢].

(١) إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي. تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٣١٤- ٣١٥.
(٢) علاء الدين علي المتقي، كنز العمال. حديث ٢٤٦٢.

وعن ابن عمر عنه ﷺ: «اقرأ القرآن ما نهاك فإن لم ينهك فلست تقرأه».[١]

وكم هو مرعب هذا الحديث المروي عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «كم من قارئ القــرآن والقرآن يلعنه»[٢] لكنه يقرّر حقيقة واضحة، فمن يقرأ قوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [سورة هود، الآية: ١٨]، وهو يمارس الظلم، ومن يقرأ قوله تعالى: ﴿فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [ســورة آل عمران، الآيــة: ٦١]، وهو يتعمّد الكذب، فذلك وأمثاله مصداق للحديث الشريف.

ورد عن الإمام جعفر الصادق ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾[ســورة البقرة، الآية: ١٢١]. قال ﷺ: يُرَتِّلُونَ آيَاتِهِ، وَيَتَفَقَّهُــونَ بِهِ، وَيَعْمَلُونَ بِأَحْكَامِــهِ، وَيَرْجُونَ وَعْدَهُ، وَيَخَافُونَ وَعِيــدَهُ، وَيَعْتَبِرُونَ بِقِصَصِــهِ، ويَأْتَمِــرُونَ بِأَوَامِرِهِ، وَيَنْتَهُــونَ بِنَوَاهِيهِ، مَا هُوَ وَاللهِ حفــظُ آيَاتِهِ وَدَرسُ حُرُوفِه، وَتِلاَوَةُ سُوَرِهِ وَدَرسُ أَعْشَارِهِ وَأَخْمَاسِهِ، حَفِظُوا حُرُوفَهُ وَأَضَاعُوا حُدُودَهُ، وإِنَّمَا هُوَ تَدَبُّرُ آيَاتِــهِ وَالْعَمَلُ بِأَرْكَانِهِ، قَالَ الله تَعالى: ﴿كِتَــابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾[٣].

إن قوله ﷺ: (حفظــوا حروفه وأضاعوا حدوده) كلمة عميقة، تضع حدًّا فاصلًا بين مجرد الاهتمام بمظاهر القرآن، وبين الالتزام بقيمه ومناهجه.

برنامج حياة

ليس القرآن مجرد نصٍّ أدبيّ يستمتع الإنسان بقراءته، ولا هو مجرد معلم تراثي، يحنّ الإنســان للاطّلاع عليه، وليس مجموعة من الأوراد والأذكار الروحية يتبرك الإنســان بتلاوتها، إنه فوق ذلك كله رسالة هداية، وبرنامج حياة، إنه دستور عمل،

(١) كنز العمال. حديث ٢٧٧٦.
(٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار. ج٨٩، ص١٨٥.
(٣) ورام بن أبي فراس، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورام)، ج٢، ص٢٣٦.

ومشروع بناء وإصلاح.

وعلى المسلم أن يتعامل مع كل آية قرآنية باعتبارها دعوة عمل، وقرار تكليف، فيصيغ حياته، ويكيّف واقعه على ضوء هدي القرآن وتوجيهاته.

والاهتمام المطلوب من قبل الأمة بالقرآن الكريم: هو تحكيمه في شؤون الحياة، والاستجابة لدعوته، وتطبيق مناهجه وتشريعاته في مختلف المجالات، أما إذا أعرضت الأمة عن مناهج القرآن، وغابت قيمه عن أجواء حياتها، واستبدلت بأحكامه قوانين أخرى، فإن ذلك هو مصداق اتخاذ القرآن مهجورًا، ولا يشفع للأمة حينئذٍ أمام اللَّه تعالى اهتمامها الشكلي الظاهري بالقرآن.

كما لا تستفيد الأمة من عطاء القرآن الحقيقي، إذا لم تأخذ بهديه عمليًا، ولم تجعل آياته في مورد التنفيذ والتطبيق.

ولو تأملنا واقع الأمة اليوم، ودرسناه على ضوء القيم والمعايير التي تنادي بها آيات القرآن الكريم، لوجدنا عمق الهوة الفاصلة، والبون الشاسع، بين واقع الأمة المعيش ومبادئ القرآن العظيمة.

النظر في كتاب الكون

ومن أوائل المفارقات التي تصدم المتأمل بين واقع الأمة ودعوة القرآن، التعامل مع الكون والطبيعة، حيث تركّز أكثر آيات القرآن الكريم على الدعوة إلى النظر في كتاب الكون، واستكشاف أسراره، ومعرفة السنن والقوانين التي تحكم حركته.

إن عددًا كبيرًا من سور القرآن الكريم تحمل أسماء لظواهر طبيعية، ولموجودات كونية، وفي ذلك إشارة واضحة للاهتمام بقضايا الطبيعة والكون.

حيث نجد من أسماء سور القرآن مثلًا: البقرة، الأنعام، الرعد، النحل، الكهف، النور، النمل، العنكبوت، الدخان، الطور، النجم، القمر، الحديد، الجن، الإنسان،

التكوير، الانفطار، الانشـقاق، البروج، الفجر، الشـمس، الليل، الضحى، التين، العلق، العصر، الفيل، الفلق، الناس.

ونجد في القرآن الكريم آيات كثيرة تأمر الإنسان بالنظر والتأمل في أمور الطبيعة والكون، كقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرْ الإِنسَـانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّـا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَـقَقْنَا الأَرْضَ شَـقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾[سـورة عبس، الآيات: ٢٤ـ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [سـورة الطارق، الآيات: ٥ـ٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [سـورة يونس، الآية: ١٠١]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّـمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [سورة الغاشية، الآيات: ١٧ـ٢٠].

هذا التوجيه المكثف في القرآن الكريم نحو الطبيعة والكون، يسـتهدف تركيز الإيمان بتوحيـد الخالق وعظمته أولًا، وانطلاق الإنسـان نحـو عمارة الأرض، واستثمار خيرات الكون ثانيًا.

فالإنسان خليفة اللَّه في الكون، ومطلوب منه عمارة الأرض، وكل ما في الحياة من قوى وإمكانات مهيأة لاستفادة الإنسان وخدمته، يقول تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [سورة الجاثية، الآية: ١٣].

هذه دعوة القرآن، فأين واقع المسلمين منها؟! وما مدى توجههم لعلوم الطبيعة والكون؟! وما مستوى إنجازاتهم العلمية والعملية؟!

أليس مؤلمًا أن أمم الأرض تتسـابق نحو المعرفة والعلـم، وتحقق المزيد من الاكتشـافات والاختراعات، وتنجز الكثير من التقدم العلمي والتكنولوجي، بينما تراوح أمة القرآن مكانها على هامش حركة الحضارة والعلم؟!

هـذه الأمة التي يبدأ قرآنها بالدعوة إلى المعرفة: ﴿اقْرَأْ﴾، وتركز أكثر آياته على

النظر في كتاب الكون، كيف تعيش في أوحـال الجهل والتخلف، وتصنّف ضمن قائمة الدول النامية، والعالم الثالث؟!

إن الإحصائيات والأرقام التي تتحدث عن مسـتوى البحث العلمي في العالم العربي والإسلامي، قياسًا إلى واقع العلم والتقدم لدى الأمم الأخرى، لتكشف عن تخلف عميق.

تشير بعض الإحصاءات إلى أن القوى البشرية التي تعمل في البحث العلمي في الوطن العربي ١٣٦ باحثًا لكل مليون شـخص، بينما يبلغ العدد في اليابان ٥ آلاف باحث، والولايـات المتحدة ٤٣٧٤ باحثًا، وروسـيا ٣٤٢٥، والاتحاد الأوروبي ٢٤٣٩ باحثًا لكل مليون شخص.

وفيما يتعلق بالإنتاج والنشر العلمي، أفادت بعض الدراسات بأن نصيب بعض الدول مثل الولايات المتحدة الأمريكية يبلغ ٣٥٪ من البحوث العلمية المنشـورة عالميًا، في حين لا يتعدى نصيب الدول العربية مجتمعة أقل من ١٪ من هذا النشـر الدولي العلمي[١].

ويوجد في الـدول العربية مجتمعـة ٥٨٠ مركزًا تمثل ما نسـبته ٤٩ , ٧٪ من إجمالـي المراكز في العالم التي يبلغ عددهـا ٨١٦٢ مركزًا، بل خلت قائمة الدول الخمسة والعشرين التي لديها أكبر عدد من المراكز من الدول العربية في حين حلت إسرائيل في المرتبة الـ ١٩ على هذه القائمة.

ومن حيـث المخصصات المالية للبحث العلمي، جاءت المخصصات العربية متواضعة للغاية، حيث بلغت في مجملها ٧ , ١ مليار دولار أي ما نسبته ٣ , ٠٪ من الناتج المحلي الإجمالي، فيما تنفق إسـرائيل على البحث العلمي ما نسبته ٧ , ٤٪ من ناتجها الإجمالي، وتنفق السويد ما نسبته ٣ , ٣٪ وتنفق سويسرا واليابان ما نسبته

(١) وكالة الأنباء السعودية ١٣ ذو القعدة ١٤٤٠هـ https://www.spa.gov.sa/1947407

٢,٧٪ من الناتج المحلي الإجمالي[١].

لقد انشغل المسلمون بالتغني بأمجاد الماضي، وبالسجالات والخلافات المذهبية، وبالاهتمامات القشرية، غير مكترثين بنداءات القرآن الصارخة، ودعواته المكثفة، نحو التوجه لعلوم الطبيعة والحياة، مع أنهم يسمعون تلك الآيات من إذاعات القرآن، ومن المقرئين المجيدين، وفي مختلف المجالس والمناسبات، أليس هذا مصداقًا لهجر القرآن على صعيد العمل والتطبيق؟!

أنظمة العلاقات الاجتماعية

تنظيم العلاقات بين الناس على أساس العدل والإحسان، هو من أهم أهداف نزول القرآن وجميع الرسالات السماوية، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [سورة الحديد، الآية: ٢٥].

لذلك ركزت آيات القرآن الكريم على هذا الجانب، وأكدت على مبادئ أساس، يجب أن يلتزم بها الإنسان في علاقاته مع أخيه الإنسان، كأفراد ومجتمعات، وهي مبادئ تنطلق من الإقرار بوحدة النوع البشري، وتساوي أفراده في القيمة والاعتبار، وتمتعهم بالكرامة الإنسانية، واحترام حرية الإنسان، وحفظ حقوقه المعنوية والمادية.

إن سلامة العلاقات بين أفراد المجتمع، وبين شرائحه وقواه المختلفة، ثم بين المجتمع وسائر المجتمعات، ضمن الأسرة الإنسانية، يشكل هدفًا أساسًا، ومقصدًا رئيسًا لآيات القرآن وشرائع الدين.

من هنا تناولت نسبة كبيرة من الآيات القرآنية قضايا العلاقات الاجتماعية، كمنهج عام وكتشريعات جزئية.

---

(١) البحث العلمي مفتاح التنمية، موقع آراء حول الخليج، http://araa.sa/index.php?view=article&id=4700:2019-07-08-12-10-42&Itemid=172&option=com_content

لقد أكّـد القرآن الكريم علـى مبدأ التعـارف والاحترام المتبـادل بين الأمم والحضارات البشرية، فالعلاقة بينها ليست علاقة صراع وصدام، بل علاقة تعارف وتعايش وحوار، يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾.

ووجّـه القرآن أتباعه إلى انتهاج سياسـة العدل والإحسـان تجاه المجتمعات الأخرى، المختلفة دينيًّا، ما دامت مسالمة غير معادية، يقول تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَـنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِـطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [سورة الممتحنة، الآية: ٨].

ونهى عن الإساءة إلى الآخرين، وتجريح مشاعرهم، حتى على مستوى الحديث والكلام، وفي غمرة النقاش الديني معهم، يقول تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ﴾ [سـورة العنكبوت، الآية: ٤٦]، ويقول تعالـى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْـنًا﴾ [سورة البقرة، الآية: ٨٣]، ﴿وَلاَ تَبْخَسُـوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٨٥].

وفي داخل المجتمع الإسلامي حذّر من الخصومة والنزاع، يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٤٦]، وأمر بالتعاون والتكافل، يقول تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [سورة المائدة، الآية: ٢].

ومنع القرآن من الاستبداد، ودعا إلى الشورى ومشاركة الناس في بحث شؤونهم وقضاياهم. يقول تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الشورى، الآية: ٣٨]،

ونهى القرآن الكريم عن اتهام الناس في أديانهم، يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [سورة النساء، الآية: ٩٤].

وحـذّر القرآن في آيات عديدة من التجاوز على أي حق مادي أو معنوي، يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٧٨].

لذا يفترض في الأمة التي تحتضن القرآن أن تعيش أفضل اسـتقرار اجتماعي،

بالالتــزام بمبادئ العدل والحريــة، واحترام الكرامة وحفــظ الحقوق. لكن نظرة فاحصة لأوضاع الأمة تكشــف مــا تعانيه معظم مجتمعاتها من فقدان الاســتقرار الاجتماعي، بينما في المقابل تنعم المجتمعات الأخرى بنوع من الاستقرار، نتيجة لقبول التعددية، واحترام الرأي الآخر، والمشاركة في الأمور العامة.

إن القــرآن الكريم يهتف بوحــدة الأمة، وتتلى آيات الدعــوة إلى الوحدة على مسامع المسلمين ليلًا ونهارًا، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [ســورة المؤمنون، الآية: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾ [ســورة آل عمران، الآية: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَــلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٤٦]، وأمثالها من الآيات الكريمة.

فلماذا تعيش الأمة فــي كثير من بلدانها حالات التفرقة والاضطراب الداخلي؟ بينما يتعايش الأوربيون بلغاتهم المختلفة، وقومياتهم المتعددة، ومذاهبهم المتباينة، ومصالحهم السياسية والاقتصادية المتنافسة، وهم الآن يوثقون عرى وحدتهم عبر إطــار الاتحاد الأوروبي، الذي يتكامل يومًا بعد آخــر، ووصل عدد الدول فيه إلى ثمان وعشرين دولة أوروبية.

إن الواقع السيئ الذي تعيشه الأمة في مجال اضطراب علاقاتها الداخلية، ناتج عن تجاهلها وإهمالها للمبادئ العظيمة التي أرســاها القــرآن في تنظيم العلاقات الاجتماعية، وذلك مصداق واضح من مصاديق اتخاذ القرآن مهجورًا.

القرآن شفاء

وصف القرآن نفسه بأنه شـفاء لما في الصدور، وعندما يذكر الشفاء يتبادر إلى الذهن موضوع المرض؛ لأنّ الشفاء إنما يعني تجاوز حالة المرض والألم، فعندما يقال شُفِيَ فلان فهذا يعني أنه كان مريضًا.

وإذا كان القرآن الكريم يعتبر نفسـه شفاءً، فهذا يعني أنه ينبئ عن افتراض إصابة نفوس أبناء البشر بالأمراض، كما الجسم يصاب بالمرض.

إنّ مرض الجسـم يعني وجود خلل في جهـاز أو عضو من أعضائه، فيمنع هذا العضو من أداء دوره بشـكل طبيعـي، ينتج عن ذلك مضاعفـات وآلام وتعويق، وحينما يحصل المرض في جسم الإنسان فإنه يندفع لمعالجته؛ لأن بقاءه يسبب له مشاكل، كما أنّ إبقاءه دون علاج يرشح المرض للتطور والزيادة.

ومثل هذا تصاب به النفس، فالنفس هي: مجموعة المشاعر والعواطف والغرائز الموجودة عند الإنسـان، وطريقة تعامله معها، وإشباعه لها، فكلّ غريزة من غرائز الإنسـان، وكلّ عاطفة من عواطفه، وكلّ جانب من جوانبـه، يؤدي دورًا مهمًا في تكوين نفسـيته، وما انتظام حياة الإنسـان إلّا بانتظام هذه الغرائز، وأداء كلّ واحدة دورها الطبيعي الذي خلقت من أجله.

والمشكلة في الجانب الروحي أن كثيرًا من أعراض أمراضه يصعب استشعارها،

لدرجة أن الإنسان يمارس حياته وكأنه إنسان طبيعي سوي، وهو يحمل في طوايا تلك النفس أخبث الأمراض وأخطرها على نفسه وعلى الإنسانية أجمع.

المرض النفسي ربما يبدأ بسيطًا، لكنه يتضخم حتى يفقد الإنسان توازنه، ويسبب له التعويق في تعاطيه مع ربه، ومع نفسه ومع الناس، وعلى هذا ينبغي علاج النفس، كما نعالج خلل البدن، لئلا يزداد ويستفحل، ومن ثم يعيق مسيرة حياة الإنسان السّوي على هذه الأرض.

وربما كان هذا الأمر بيّنًا واضحًا لدى بني البشر، لكن السؤال المحيِّر: كيف نعالج هذه الأمراض النفسية؟

لقد قدّم الإنسان كثيرًا من الضحايا والتجارب حتى وصل إلى ما هو عليه الآن من تكنولوجيا الطب وتقنيته، وصار له في المجال الجسمي أطباؤه وصيادلته ومستشفياته ومصحّاته.. وتمكّن من اكتشاف ومعالجة كثير من الأمراض التي كانت تخفى على الأطباء بالأمس، أو تتعذر عليهم معالجتها.

وكذلك الأمراض النفسية تحتاج للعلاج، ولو ترك الإنسان وعقله وفطرته، فإنه قد يصل إلى الحلّ، لكنه سيدفع من أجل ذلك الكثير الكثير من المعاناة، ويعيش التخبّط لزمن طويل.

وما يزيد الأمر خطورة أن الأمراض الجسمية ليس هناك مراكز قوى ومصالح ـ في الغالب ـ تسعى للإطاحة بجسم الإنسان وتعويقه، كما في مراكز القوى التي تكرس جهودها لتخدير الشعوب، والعبث بنفوسهم وعقولهم، فاختصر الله الخالق سبحانه للإنسانية العلاج، للخلاص من أمراضهم النفسية والروحية، بهذا الهدي الإلهي، الذي جاء في آخر صورة منه بعد سلسلة الأنبياء والمرسلين، متمثلًا في القرآن الكريم.

ولهذا جاء التعبير القرآني ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ

لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يونس، الآية: ٥٧]، ليكون خطابًا لكلّ البشـــر الذين يتعرضون لأخطار الأمراض النفسية والروحية ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ﴾ أي من أجلكم وقصدًا لكم.

مراحل التربية

ثم جاءت الآية الشريفة تحكي مراحل التربية والتزكية[١]:

المرحلة الأولى: مرحلة الموعظة الحسنة والنصيحة ﴿مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾

المرحلة الثانية: تطهير الروح من الرذائل والنقائص ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾

والمرحلة الثالثة: الهداية إلـــى المعارف الحقّة والأخـــلاق الكريمة والأعمال الصالحة ﴿وَهُدىً﴾

المرحلة الرابعة: هي مرحلة الاستقرار في الرحمة والنعمة والسعادة ﴿وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

وفي الحديث عن النبي ﷺ: «القُرآنُ هُوَ الدَّواءُ»[٢] دواء لأمراض النفس والآفات الروحية.

ويقول الإمام عليّ عليه السلام في خطبته عن القرآن: «وَاعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّـــذِي لَا يَغُشُّ وَالْهَادِي الَّذِي لَا يُضِلُّ وَالْمُحَدِّثُ الَّـــذِي لَا يَكْذِبُ وَمَا جَالَسَ هَذَا الْقُـــرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ زِيَادَةٍ فِي هُدًى أَوْ نُقْصَانٍ مِنْ عَمًى وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنًى فَاسْتَشْـــفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لَأْوَائِكُمْ فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ»[٣].

---

(١) الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل، ج٦، ص٣٥٣ (بتصرف).
(٢) كنز العمال. ج١، ص٥١٧، حديث ٢٣١٠، وأيضًا بحار الأنوار، ج٨٩، ص٦٧، حديث٤.
(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦.

القرآن موعظة

الموعظــة من الوعظ، والوعظ كلمــة تدلّ على التخويــف، وقيل هو تذكيرك للإنسان بالخير ونحوه مما يرقّ له قلبه.

وقد وصــف الله القرآن بأنه موعظــة، يقول تعالى: ﴿هَذَا بَيَــانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٣٨].

ومن خلال التتبع لموارد لفظ الموعظة في القرآن الكريم، نلاحظ أنها استعملت في مخاطبة وجدان الإنسان وأحاسيسه ومشاعره.

والخطابات التي توجّه للإنسان عادة ثلاثة أنواع:

- خطاب للعقل، وهو الكلام العلمي المنطقي.
- وخطاب للغرائز والشــهوات، لإثارتها كما في الأغانــي الهابطة والأفلام الخليعة.
- وخطاب للوجدان والأحاسيس الخيرة، وهذه هي الموعظة.

الموعظة

والموعظة وإن استعانت بالخطاب العلمي، لكنها أقرب إلى النفس والوجدان؛

لأنّ الناس في أغلبهم تُحرّكهم عواطفهم وشـــهواتهم، رغم معارفهم العلمية، لكن القليل من الناس من يمتلك الإرادة لتطبيق ما يعرف.

ومن هنا تؤدي الموعظة في المجـــال الديني دورًا كبيرًا، والقرآن الكريم يقول: ﴿ادْعُ إِلَى سَـــبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [ســـورة النحل، الآية: ١٢٥] فبينما تشـــير الحكمة إلى مخاطبة العقل، واستخدام الدليل المناســـب للإثبات والنفي، ووضع الشـــيء في موضعه، تخاطب الموعظة الحسنة الوجدان والضمير بالطريقة المؤثرة الجذابة.

ونقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة لقمان، الآية: ١٣] فهو يستثير أحاسيسه الخيرة ويُوقظها.

وفي العلاقات العائلية يقول القرآن: ﴿وَاللاتِي تَخَافُونَ نُشُـــوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ﴾ [ســـورة النســـاء، الآية: ٣٤]، أي خاطبوهن بالوجدان والضمير إذا تعذر التفاهم العقلي الصرف.

والله سبحانه يأمر نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم بالتخاطب مع المنافقين وغير الصالحيـــن، يقول تعالى: ﴿أُولَئِـــكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِـــمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِـــهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [ســـورة النســـاء، الآية: ٦٣] فأولئك ما كانت تنقصهم المعرفة بحقيقة الدين ومكانة النبي صلى الله عليه وآله، لكن الغلبة عندهم للتوجّهـــات المصلحية، ومـــا يحتاجونه هو تحذيرهم من مغبّة الانحراف وســـوء العواقب.

ونحن في حياتنا العامة بحاجة إلى موعظـــة، ونذكّر هنا بأن الخطاب الديني لا ينبغي أن يتمحّض للجانب العلمي ـ كما يطلبه بعض الناس من الخطباء، أو كما هو الحال في المجال الأكاديمي الجامعي ـ في المجال الديني ينبغي أن يُذكَّر فيه بتقوى الله، وبالواجبات الدينية، وبالمســـؤوليات الخاصـــة والعامة، عبر الحقائق العلمية

والمعرفية، وعبر مخاطبة الوجدان والأحاسيس النبيلة الخيّرة لدى الإنسان، بدون إفراط ولا تفريط، لهذا يقول الإمام عليّ عليه السلام لولده الإمام الحسن عليهما السلام: «أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ»[1].

ولو راجعنا تراجم مراجع الدين وكبار العلماء في الحوزات العلمية، لوجدنا كثيرًا من الفقهاء يطلبون من الخطباء والأولياء أن يعظوهم ويستثيروا أحاسيسهم، فهل هذا الخطيب يضيف إلى معلومات الفقيه والمرجع شيئًا؟! لكنه حينما يذكر لهم كلمات رسول الله صلى الله عليه وآله، وخطب أمير المؤمنين عليه السلام، ومواقف أهل البيت عليهم السلام، يذكّرهم بمسؤولياتهم، وبحساب الله ومراقبته لهم، فهذه موعظة ينبغي أن يستفيد منها الإنسان، وينبغي ألّا تخلو حياتنا منها على كلّ حال.

والقرآن الكريم: «أَبلَغُ المَوعِظَة»[2] كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فهو وإن احتوى حقائق علمية في مختلف المجالات، لكنه في جانبه الأكبر موعظة تخاطب الوجدان والضمير، ويذكّر الإنسان بضعفه وحاجته إلى الله سبحانه وتعالى، ويذكّر الإنسان بمصيره، وأنه سوف يموت ويفنى، ويذكّره بالمسؤولية التي يحملها على عاتقه، وأن كل أعماله وتصرّفاته محسوبة عليه، وأنه محاسب عليها يوم القيامة، ويذكره بالمصير الأخروي والجنة والنار والثواب والعقاب.

هذا التذكير الدائم المتواصل ينبغي لقارئ القرآن أن يتفاعل معه، وألّا يمرّ عليه مرورًا سريعًا، ولا يقرأ آيات العذاب مثلًا وهو منصرف عنها بوجدانه وأحاسيسه، فيضحك ويهزأ وكأنّها لا تعنيه، بل ينبغي لنا أن نتأمل القرآن بوجداننا ومشاعرنا، يقول تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [سورة الزمر، الآية: ٢٣].

---

(١) نهج البلاغة، خطبة ٣١.

(٢) الشيخ الصدوق: من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٤٠٢.

حينما تمرّ على أيّ آية من آيات القرآن انفتح عليها نفسيًّا، فهي تخاطب ضميرك ووجدانك، لا تقرأ القرآن كما تقرأ كتابًا علميًّا يضيف إلى معلوماتك معلومة جديدة، وإنما تقرؤه ككتاب موعظــة يخاطب وجدانك وضميرك، ويرجعك إلى حقيقتك، ويضعك أمام مســؤوليتك، هذا ما يجــب أن ننتبه إليه في قراءتنــا للقرآن الكريم، وهذا ما يجب أن يحافظ عليه الخطاب الديني بشــكل عام؛ لأنّ الخطاب الديني لا يتخاطب مع الجانب العقلي فقط، وإنما يمزجه مع الخطاب الوجداني لدى الناس، ومن يراجع القرآن الكريم يجده يصوغ خطاباته العلمية بطريقة وجدانية فطرية، وما على الإنسان إلّا أن يفسح لها المجال لتلج إلى نفسه وتتغلغل فيها.

الشباب والعودة إلى القرآن

العودة إلى القرآن هو خلاص البشـرية من البؤس والشـقاء الذي تعانيه، رغم تقدمها المادي التكنولوجي الهائل.

والعودة إلى القرآن هو سـبيل الأمة الإسـلامية للعزة والكرامة، وتجاوز حالة التخلف الحضاري الشامل.

فمن أين تنطلق رحلة العودة إلى كتاب اللَّه؟ ومن هي الفئة التي تقود مسيرتها؟

حينما هبطت آيات الذكر الحكيم لأول مـرة على نبينا الأعظم محمد ﷺ، فإن قلوب الشباب هي التي احتضنت القرآن، وألسنتهم هي التي أوصلته إلى المسامع، وسواعدهم خاضت معارك الجهاد لتثبيت منهج القرآن في الحياة.

فأول من شـنفت آيات القرآن سـمعه من رسول الله، كان شـابًّا يافعًا في أول سنوات شبابه، هو علي بن أبي طالب، الذي استوعب القرآن آية آية وحرفًا حرفًا كما يقول عليه السلام: «سـلوني قبل أن تَفْقِدُوني، فوالّذي فَلَق الحبّة وبَرَأ النَسَمة، لو سألتموني عن آية آية، لأخبرتُكم بوقت نزولها وفي مَنْ نَزَلَتْ، وأنبأتكم بناسخها من منسوخها، وخاصِّها من عامّها، ومُحْكَمها من متَشابهها، ومكيّها من مدنيّها»[1].

(١) الشيخ المفيد: الارشاد، ج١، ص٣٥.

ويقول عليه السلام في كلمة أخرى: «إِنِّي لَأَعْرِفُ نَاسِخَهُ وَ مَنْسُوخَهُ وَ مُحْكَمَهُ وَ مُتَشَابِهَهُ وَ فَصْلَهُ مِنْ وَصْلِـهِ وَ حُرُوفَهُ مِنْ مَعَانِيهِ وَ اللَّهِ مَا حَرْفٌ نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله إِلَّا وَ أَنَا أَعْرِفُ فِيمَنْ أُنْزِلَ وَ فِي أَيِّ يَوْمٍ نَزَلَ وَ فِي أَيِّ مَوْضِعٍ نَزَلَ»(١).

وإلى أن انقطع الوحي بوفاة رسـول اللَّه صلى الله عليه وآله واكتمل نزول القرآن، كان علي لا يزال في مرحلة الشباب، حيث لم يتعدّ عمره الثالثة والثلاثين.

وأول صادح بالقرآن في ملأ قريش، كان شـابًّا اسـمه عبد اللَّه بن مسعود، وهو سادس ستة سبقوا إلى الإسلام، ويتحدث عن موقفه البطولي عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ : «كَانَ أَوَّلَ مَنْ جَهَرَ بِالْقُرْآنِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله بِمَكَّةَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ.

قَالَ: اجْتَمَعَ يَوْمًا أَصْحَابُ رَسُـولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، فَقَالُوا : وَاللَّهِ مَا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ هَذَا الْقُرْآنَ يُجْهَرُ لَهَا بِهِ قَطُّ، فَمَنْ رَجُلٌ يُسْمِعُهُمُوهُ ؟

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ : أَنَا.

قَالُوا: إِنَّا نِخْشَاهُمْ عَلَيْكَ، إِنَّمَا نُرِيدُ رَجُلا لَهُ عَشِيرَةٌ يَمْنَعُونَهُ مِنَ الْقَوْمِ إِنْ أَرَادُوهُ.

قَالَ: دَعُونِي، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيَمْنَعُنِي.

قَالَ: فَغَدَا ابْنُ مَسْـعُودٍ حَتَّى أَتَى الْمَقَامَ فِي الضُّحَى، وَقُرَيْـشٌ فِي أَنْدِيَتِهَا فَقَامَ عِنْدَ الْمَقَامِ، ثُمَّ قَالَ : بِسْـمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ رَافِعًا صَوْتَهُ : ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْءَانَ﴾ [سورة الرحمن، الآيات: ١-٢].

قَالَ : ثُمَّ اسْتَقْبَلَهَا يَقْرَأُ فِيهَا، قَالَ : وَتَأَمَّلُوا فَجَعَلُوا يَقُولُونَ : مَا يَقُولُ ابْنُ أُمِّ عَبْدٍ؟.

قَـالَ: ثُمَّ قَالُوا : إِنَّهُ لَيَتْلُو بَعْضَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ، فَقَامُوا إِلَيْهِ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ فِي وَجْهِهِ، وَجَعَلَ يَقْرَأُ حَتَّى بَلَغَ مِنْهَا مَا شَـاءَ اللَّهُ أَنْ يَبْلُغَ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى أَصْحَابِهِ وَقَدْ أَثَّرُوا فِي وَجْهِهِ.

(١) محمد بن الحسن الصفار، بصائر الدرجات: ص١٣٥ حديث٣.

قَالُوا: هَذَا الَّذِي خَشِينَا عَلَيْكَ.

قَالَ: مَا كَانَ أَعْدَاءُ اللَّهِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْهُمُ الآنَ، وَلَئِنْ شِئْتُمْ لأُغَادِيَنَّهُمْ بِمِثْلِهَا.

قَالُوا: حَسْبُكَ فَقَدْ أَسْمَعْتُهُمْ مَا يَكْرَهُونَ[١].

كان الشاب ابن مسعود يقرأ القرآن بتفاعل صادق حتى روي عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَسْمَعَ الْقُرْآنَ غَضًّا فَلْيَسْمَعْهُ مِنْ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ»[٢].

وأول من حمل آيات القرآن الكريم إلى المدينة، وعلّم أهلها القرآن، وهيأها لتكون مهجر الرسول ﷺ ودار الإسلام، هو الشاب المجاهد مصعب بن عمير، والذي اعتنق الإسلام في نضارة شبابه، حيث أخذت آيات القرآن التي سمعها لأول مرة من رسول اللَّه ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم بمجامع قلبه، وأحدثت تحولًا فوريًّا في وجوده ونظرته للحياة.. فتخلى عن حياة الدلال والترف والرخاء، حيث كان أرفه شاب بمكة، كما يقول عنه رسول اللَّه ﷺ: «لَقَدْ رَأَيْتُ هَذَا، يَعْنِي مُصْعَبًا، وَمَا بِمَكَّةَ فَتًى مِنْ قُرَيْشٍ أَنْعَمَ عِنْدَ أَبَوَيْهِ نَعِيمًا مِنْهُ، ثُمَّ أَخْرَجَهُ مِنْ ذَلِكَ الرَّغْبَةُ فِي الْخَيْرِ، فِي حُبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ»[٣].

لقد انجذب بكلّه إلى القرآن، وتشرّبت نفسه مفاهيمه ومعانيه، وارتكزت في ذهنه وقلبه آياته وسوره، فاختاره الرسول ﷺ أول سفير للإسلام خارج مكة، وانتدبه ليعلم أهل المدينة القرآن، ويفقههم في الدين.

لقد «كان في أصحاب الرسول ﷺ يومئذٍ من هم أكبر منه سنًّا، وأكثر جاهًا، وأقرب من الرسول ﷺ قرابة.. ولكن الرسول ﷺ اختار مصعب الخير، وهو يعلم أنه يكل إليه بأخطر قضايا الساعة، ويلقي إليه بمصير الإسلام في المدينة، التي

(١) سليمان بن أحمد الطبراني: كتاب الأوائل، ص ١١٥.
(٢) ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفه الاصحاب، ج٣، ص٩٩٠.
(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ١١٧.

ستكون دار الهجرة، ومنطلق الدعوة»[١].

تلك كانت أمثلة ونماذج من جيل شـــاب، وعى القرآن بدء نزوله، وحمله رسالة ومنهج حياة، وأرسى على ضوء هديه أساس الحضارة الإسلامية الشامخة..

أما لماذا كان الشباب هم جيل الاستجابة للقرآن أكثر من غيرهم؟

فذلك للأسباب التالية:

١. أنهم كانوا في مرحلة تفتح الفكر، وتشـــكيل الوعي، ووجدوا أمامهم أسئلة ملحّة عن سرّ الحياة، وسبب الوجود، وغاية الخلق، ورأوا في القرآن الكريم الهـــدي والهداية إلى الإجابات الشـــافية المقنعة، التي تنســـجم مع الفطرة وتتوافق مع المنطق وبديهيات العقل.

٢. وكشباب مرهفي المشاعر والأحاســـيس، كانوا يتحسّسون مساوئ الواقع الجاهلي المعيش، من عبادة أصنام، وفساد أخلاق، ونشوب حروب وفتن، لكنهم لا يعرفون طريقًا للخلاص والعلاج، وجاءت آيات القرآن الحكيم، لتمنحهم البصيـــرة والنور، ولتضع أقدامهم على طريق النجاح والســـلام، فاستقبلوها بإخلاص واندفاع.

٣. كانت قلوبهم أنقى وأصفى من الآخرين، فلأنهم شباب حديثو عهد بالحياة لم تتمكن المصالح من نفوســـهم، ولم تسيطر السلبيات على أذهانهم، ولم تتكرس المساوئ والمفاسد في سلوكياتهم، فانشدادهم للواقع الفاسد كان محدودًا، ممـــا جعلهم أكثر قدرة على التحرر منـــه، والإفلات من هيمنته، والانطلاق نحو أفق جديد.

٤. ومرحلة الشـــباب تخلق عند الإنســـان ثقة بالذات، ورغبة فـــي المغامرة، وتطلعًا لمســـتقبل أفضل، وذلك ما يتناغم مع هـــدي آيات القرآن الحكيم،

(١) خالد محمد خالد. رجال حول الرسول، ص٢٧.

ويخلق الأرضية المناسبة للتفاعل معها.

٥. وتوجه الرسول ﷺ لهم وإقباله عليهم، وما كان يفيضه عليهم من حب وحنان، ويبديه لهم من تقدير واحترام، في مجتمع كان السن والمال فيه مناط المكانة والزعامة، كل ذلك جذبهم إلى رسول اللَّه ﷺ، واستقطبهم إلى رسالة اللَّه تعالى، فالخلق العظيم الذي تحلّى به المصطفى ﷺ، وغمر به أولئك الشباب التائهين المهملين في مجتمعهم، هو الذي صنع شخصياتهم القيادية، وفجّر مواهبهم وكفاءاتهم وطموحهم نحو العزة والتقدم.

وكما بدأت مسيرة القرآن الكريم على أيدي الشباب، فإن رحلة العودة إلى القرآن ستكون على أيديهم المباركة إن شاء اللَّه.

فمن ينهل من القرآن في فترة شبابه، ويرتشف من نميره العذب، فإن بناءه النفسي، وتشكيله الفكري، وممارسته السلوكية، ستصاغ على هدي الوحي، فشخصية الإنسان تتبلور معالمها، وتتحدد سماتها في فترة الشباب، فإذا كان فيها قريبًا من القرآن، متتلمذًا على آياته، فسيكون قرآنيًّا في توجهاته ومسارات حياته.

ورد في رواية عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ ـ وَهُوَ شَابٌّ مُؤْمِنٌ ـ اخْتَلَطَ الْقُرْآنُ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ، وَجَعَلَهُ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَكَانَ الْقُرْآنُ حَجِيزًا عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].

إن مؤشرات كثيرة تلوح في الأفق، تبشر بمستقبل واعد لأمتنا الإسلامية على أيدي شبابها الأعزاء المؤمنين، فهذه اليقظة الإسلامية المباركة، والأنشطة الدينية المنتشرة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، والبرامج القرآنية في تلاوة القرآن وتحفيظه وتعليمه وتفسيره، التي يقبل عليها الشباب الطيبون، كلها بشائر خير على نهضة حضارية قادمة.

---

(١) الكافي، ج٢، ص٦٠٣.

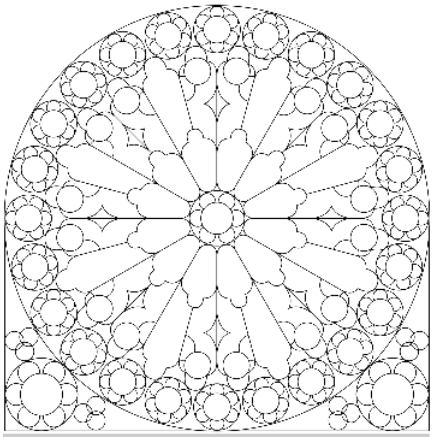

الفصل الثاني

مبادئ التعايش الإنساني

تعيش الأمة الإسلامية في هذا العصر أزمة حادّة في العلاقة مع الآخر المختلف دينيًا، بسبب ترعرع تيار في وسط الأمة يتبنى الصدام مع الآخر، ويمارس أشد ألوان العنف والإرهاب تجاهه، من الخطف والقتل والسبي، وتدمير المنشآت، واستهداف التجمعات المدنية بالتفجير والقتل والإرعاب، وكل ذلك يتم باسم الإسلام، وتحت رايات ترفع شعاره.

وقد طالت هذه الهجمات مختلف بلدان العالم، وسقط ضحاياها آلاف المدنيين الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال.

صحيح أن المسلمين قد عانوا في الماضي ويلات الاستعمار الأجنبي، وعنف الحملات الصليبية، ولا زالوا يواجهون سياسات الهيمنة الأجنبية على بلدانهم، والدعم المفتوح لعدوهم الرئيس (إسرائيل)، التي تحتل أرض فلسطين، وتمعن في إذلال الشعب الفلسطيني، وتمارس الغطرسة في المنطقة العربية والإسلامية بدعم غربي.

لكن ذلك لا يبرر أبدًا ممارسة الإرهاب واستهداف الأبرياء، وافتعال معركة دينية وصدام حضاري، فالسياسات الدولية لا تنطلق من منطلق ديني، ولا ترفع شعارات أيديولوجية، وإنما تدفعها وتحركها المصالح والمطامع.

كما تحتضن المجتمعات الأخرى جاليات إسلامية كبيرة، أصبحت جزءًا من تلك الأوطان، وتتمتع بكامل حقوق المواطنة، وتتاح لها فرص الحياة الكريمة، وممارسة شعائرها الدينية، وقد تكون أوضاع تلك الجاليات أفضل من أوضاع بعض المجتمعات الإسلامية في أوطانها الأصلية.

لذلك أصبحت البلدان الغربية مأوىً لكثير من المشردين واللاجئين من البلدان الإسلامية، ومهوىً للباحثين عن حياة كريمة لائقة، ومن أجل الوصول إلى شواطئ تلك البلدان يستهينون بالمخاطر والمصاعب، ويركبون أمواج البحر ويتحملون أهواله، حتى قضى الألوف منهم غرقًا وهم في طريق الهجرة إلى الضفة الأخرى.

وكان لا بدّ وأن تؤدي هذه الممارسات الإرهابية إلى تشويه سمعة الإسلام في أوساط المجتمعات الغربية، وأن يصبح وجود المسلمين مصدر قلق وخوف لتلك الشعوب. مما أعطى الفرصة لنمو توجهات يمينية متطرفة تتبنى التضييق على المسلمين، وتشويه صورة الإسلام وإهانة مقدساته، فهناك من أعلن القيام بحرق القرآن وهناك من رسم كاريكاتورات السخرية والاستهزاء بالنبي محمد ﷺ، وهناك من أنتج أفلامًا للتخويف من الإسلام والمسلمين، وهناك من طالب بطرد المسلمين أو منع دخولهم إلى أمريكا وأوروبا، ضمن الموجة التي يطلق عليها (إسلام فوبيا).

وهكذا تأزمت العلاقة بين الأمة وهذه المجتمعات، ولم يقتصر الأمر على المجتمعات الغربية المسيحية، بل امتد إلى بلدان آسيا وأفريقيا، من المجتمعات الهندوسية والبوذية وغيرها.

في الجانب الآخر فإن العلاقات داخل الأمة وبين مكوناتها الدينية ليست أقل تأزمًا من العلاقة مع الخارج، بل هي أشدّ وأخطر، حيث انفجر الصراع الطائفي بين السنة والشيعة في أكثر من قطر إسلامي، وأدى ذلك إلى حروب ومعارك، وتهجير واغتيالات وتفجيرات انتحارية إرهابية، استهدفت المساجد والحسينيات والأماكن المقدسة والتجمعات الشعبية المختلفة. وتلبدت كل سماء العالم الإسلامي بغيوم

هذا الصراع المقيت.

إن الخطيـــر في تأزم العلاقة مع الآخر الخارجـــي والداخلي، اتكاء هذه الحالة على تنظير ديني، حيث يروّج التيـــار المتطرّف لثقافة تقوم على المفاصلة والصدام مع الآخر، المختلف في الدين أو المذهب أو حتى في بعض الآراء والأفكار ضمن المذهب الواحد، كما رأينا في اقتتال الفصائل (الجهادية) في أفغانستان والصومال وسورية.

هذه الثقافة المتطرفة التي تشـــرعن الإرهاب والعنف تدعي الانتســـاب للدين، وتستدل وتستشهد بنصوص قرآنية، وأحاديث نبوية، وأفعال صحابة، وأقوال فقهاء.

وبعض ما يستشـــهد به هؤلاء المتطرفون نصوص مختلقة، قد تكون من وضع وعاظ الســـلاطين، والرواة المرتزقة للحكام المســـتبدين، من أجل تبرير بطشـــهم وديكتاتوريتهم.

وبعض النصوص صحيحة لكن يُســـاء فهمها وتفســـيرها، بما يخدم توجهات التشدد والتطرف.

وقد تكون بعض النصوص موجهة لظروف وزمن محدد، لكنهم يتعاملون معها على أســـاس الإطلاق الزماني والمكاني، دون أخذ بيئة وملابســـات صدور النص بعين الاعتبار.

من هنا تبدو الحاجة ماسة في ظل هذا الوضع الحساس الذي تعيشه الأمة، على صعيد تأزم العلاقات الخارجية والداخلية، إلى ترسيم المبادئ ووضع القواعد التي تنظم العلاقة مع الآخر، والتعايش بين أبناء البشـــر وإن اختلفت أعراقهم وأديانهم ومذاهبهم.

فلا بدّ من الرجوع إلى القرآن الكريم، وهو المصدر الأساس للعقيدة والتشريع الإسلامي، لمعرفة الرؤية الدينية، والمنهج التشريعي للتعامل مع الآخر الديني.

وتُعنى هذه الورقة المتواضعة باستكشاف الرؤية القرآنية بلغة بينة واضحة، عسى أن تسهم في تحصين وعي جمهور الأمة من التأثر بثقافة التطرف والتشدد.

١ / الشراكة الإنسانية

ما يجب أن يستحضره المؤمن هو أن الآخر مهما كان دينه ومذهبه وعقيدته فهو شريك له في هذه الحياة، ولا بدّ من التعامل معه على هذا الأساس، ذلك أن الله تعالى هو خالق الكون والحياة، وهو مالك كل شيء من ثرواتها وخيراتها، وقد أعطى حق الحياة والاستمتاع بخيراتها لجميع أبناء البشر، من آمن به ومن كفر، فجميع البشر شركاء على نحو التساوي في فرص الاستفادة من إمكانات الوجود.

ولا يحق لمن يدعي الإيمان بالله تعالى أن يصادر حق أحد من عباده ولو كان كافرًا، في التمتع بشيء من خيرات الحياة، لأنه بذلك يكون قد خالف إرادة الله، ومارس الظلم والجور.

كان يمكن لله تعالى ألا يخلق من لا يؤمن به، أو أن يسلب نعمة الوجود من الكافرين والعصاة، أو يحرمهم من بعض قدرات الحياة وامتيازاتها، لكن حكمته تعالى شاءت أن تتسع الحياة للجميع، وأن يغمر فضله ونعمه الجميع.

ولنتأمل نماذج من الآيات الكريمة التي تؤكد هذه الحقيقة:

يقول تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة، الآيتان: ٢٨-٢٩].

والخطاب في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ موجه إلى البشر مؤمنهم وكافرهم، بدليل سياق الآية مع التي قبلها والتي تخاطب الكافرين.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾[سورة لقمان، الآية:٢٠].

وتشير جملة من الآيات الكريمة إلى أن الله تعالى قد منح الإنسان فرصة الجمع بين متع الدنيا وثواب الآخرة، عن طريق الإيمان به والالتزام بدينه، لكن من يريد حرمان نفسه من ثواب الآخرة، بالكفر بخالقه، والصدّ عن دينه، فإن فرصته في التمتع بملذات الدنيا محفوظة له، يقول تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾[سورة هود، الآية:١٥].

ويقول تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[سورة الإسراء، الآية:٢٠].

فنعم الله تغمر هؤلاء المؤمنين وهؤلاء الكافرين، ولا يحظر على الكافرين شيء من عطاء الله في هذه الحياة.

هذه الآيات الكريمة وأمثالها كثير في القرآن الكريم، تؤكد على تكافؤ الفرص بين أبناء البشر في هذه الحياة، وأنه لا يحق لأحد أن يصادر حق أحد في الاستمتاع بخيرات الدنيا مهما كان دينه أو عقيدته، مؤمنًا كان أو كافرًا، لأن ذلك منحة وعطاء إلهي للخلق.

ويمكننا أن نستشهد بقاعدة في الفقه الإسلامي تنبثق من هذه الرؤية وهي قاعدة الإحياء، فمن بادر لأرض مهملة غير مملوكة فأحياها بجهده ونشاطه، ببناء أو زرع أو ما أشبه من طرق الاستفادة، فإنه يتملكها.

يقول الفقهاء: «يجوز لكل أحد إحياء الموات بالأصل، والظاهر أنه يملك به من دون فرق بين كون المحيي مسلمًا أو كافرًا»[1].

ولا يشترط عند الجمهور (الحنفية والمالكية والحنابلة) كون المحيي مسلمًا.

(١) السيد محمد الروحاني، منهاج الصالحين، مسألة ٦٧٣.

فلا فرق بين المسلم والذمي في الإحياء، لعموم قول النبي ﷺ: «من أحيا أرضًا ميتة فهي له» ولأن الإحياء أحد أسباب التمليك فاشترك فيه المسلم والذمي كسائر أسباب الملكية[١].

وهناك قاعدة: «من حاز ملك» فمن استولى على شيء غير مملوك لأحد من خيرات الكون، يصبح ملكًا له، مسلمًا كان أو غير مسلم.

٢ / الاعتراف والإقرار بوجود الآخر

كما أنك موجود فكذلك الآخر موجود، حيث لا يستطيع أحد إلغاء أحد، وكما لا يرضيك أن يتنكَّر الآخر لوجودك، فإنه لا يقبل أن تنكر وجوده.

وهنا يجب أن نفرق بين مشروعية الوجود، وحقانية الوجود، فكل صاحب دين أو مذهب يرى الحقانية في عقيدته، وأن المعتقدات الأخرى باطلة.

لكنه لا يملك حق إلغاء المعتقدات الأخرى، فلها وجودها وأتباعها، ومن حقهم أن يعبّروا عن ذاتهم الدينية والمذهبية.

وقد حاول بعض من أتباع مختلف الديانات والمذاهب أن يصادروا الوجودات الدينية والمذهبية المخالفة لهم، لكن هذه المحاولات غالبًا ما تبوء بالفشل، ولا تنتج إلا الحروب القذرة، والعنف المتبادل باسم الدين.

إن الدين والمعتقد قد يصبح هويّة وجودية للمجتمع، لا يتخلى عنها تحت ضغط التهديد، ولا الخضوع لمنطق الأدلة والبراهين.

وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾[سورة البقرة، الآية:١٤٥].

ويروّض القرآن الكريم نفوس المؤمنين ليتعايشوا مع واقع التنوع الديني فهو

(١) د. وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، ج ٥، ص ٥٥٩.

قدر البشرية إلى يوم القيامة، فلا يتوهمن أحد إمكانية الفصل والحسم بين الديانات في هذه الحياة الدنيا، إذ أنها مهمة مؤجلة إلى يوم القيامة. وتتم بين يدي الله سبحانه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[سورة السجدة، الآية:٢٥]، ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[سورة المائدة، الآية: ٤٨].

وتكريسًا لهذا المبدأ يعترف القرآن بوجود أتباع الديانات الأخرى، إلى جانب وجود أتباعه المؤمنين، في إطار هوياتهم الدينية يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[سورة الحج، الآية:١٧].

٣/ حرية الرأي والمعتقد

غالبًا ما يندفع الإنسان للتبشير برأيه وعقيدته بدافع وجداني، لأنه يؤمن بصحة رأيه، ويرغب أن يشاركه الآخرون الإيمان به، ويكسب المزيد من الثقة والاطمئنان برأيه حين تتسع رقعه المقتنعين به.

وقد يكون الدافع للتبشير بالرأي والمعتقد دافعًا مصلحيًا، حين يكون وسيلة لاستتباع الآخرين، وأخذ موقع التأثير عليهم، والقيادة لهم، بما يحقق أطماع الهيمنة والسيطرة.

وتشجع معظم الديانات أتباعها على التبشير بها ونشر معتقداتها، انطلاقًا من حقانيتها، ولأن ذلك يجلب رضا الرب سبحانه.

وقد يؤدي التبشير بالرأي والمعتقد إلى حالة من الصدام والصراع بين أتباع الديانات والمذاهب والأفكار، وخاصة حين يأخذ منحى الفرض والإكراه.

وهنا يؤكد القرآن الكريم على احترام حرية الرأي والمعتقد، ويرفض أي محاولة

لإكراه الآخرين على تبني معتقد أو قبـــول رأي. يقول تعالى ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [ســـورة البقرة، الآية: ٢٥٦]، ويقول تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْـــرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يونس، الآية: ٩٩].

إن الأنبياء الذين بعثهم الله برســـالاته وشرائعه، تنحصر مهمتهم في تبيين الدين وتبليغه، ولا يحق لهم أبدًا فـــرض الدين أو إجبار الناس على اعتناقه. يقول تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [سورة الغاشية، الآيتان:٢١-٢٢] ويقول تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُـــولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَـــلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [سورة النساء، الآية:٨٠].

ويقول تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْـــلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْـــلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [سورة آل عمران، الآية:٢٠].

لقد شـــاءت إرادة الله وحكمته أن يكون الإنسان في هذه الدنيا حرًّا في قناعاته وأفكاره، حتى في مبدأ الإيمان بالله تعالى، حيث لم يفرض الله على خلقه الإيمان به إجبارًا وإكراهًا، ولم يمنح لأحد حق هذه الوصاية والممارسة.

يقول تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [سورة الكهف، الآية: ٢٩].

ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَـــاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِـــي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يونس، الآية:٩٩].

هكذا يؤكد القرآن الكريم احترام حرية الرأي والمعتقد، ولا يســـمح للمؤمنين به اســـتخدام العنف والقوة في الدعوة إليه، حتى عنـــف اللفظ والكلام غير مقبول عند الله كأســـلوب للدعوة إلى دينه، يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَـــبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل، الآية: ١٢٥] ويقول تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة العنكبوت، الآية: ٤٦].

٤ / سيادة العدل وحفظ الحقوق

إن التمايــز الديني والمذهبي لا يعطي لأحد الحق في الاســتعلاء على الآخر، ومصادرة شــيء من حقوقه الإنســانية، أو النيل من كرامته. فاعتقادك بأحقية دينك وبطلان دين الآخر، لا يمنحك مبررًا للتسلط عليه أو امتهان كرامته، ذلك أن الإنسان بما هو إنســان وقبل أي عنوان آخر ديني أو عرقــي أو طبقي، له قيمته وكرامته التي يجب أن تحفظ وتحترم في هذه الحياة، أما في الآخرة فحسابه عند ربه.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [سورة الغاشية، الآية: ٢٥-٢٦]

ويقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [سورة المؤمنون، الآية: ١١٧].

ولتأكيد هذه القيمة الإنســانية تحدثت آيات القرآن الكريم عن مكانة الإنســان وخصائصه الفريدة، فهو الــذي جعله الله خليفته في الأرض، وجعل تحت تصرفه كل موجــودات الكون والحياة، يقــول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَــخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّــمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [ســورة لقمان، الآية: ٢٠] وقد خلقه في أحســن تقويم، وأســجد له ملائكته، ومنحه الكرامة والقيمة العالية، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُــمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَــاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [سورة الاسراء، الآية: ٧٠].

كل هذه المكانة والامتيازات للإنســان بما هو إنســان، دون النظر إلى عرقه أو دينه أو عقيدته، كما هو مفاد الإطلاق في الآيات الكريمة، وصحة العقيدة والدين، والالتزام القيمي يضيف إلــى صاحبه في المكانة والاعتبار عنــد الله، وفي ثواب الآخرة، أما في الحياة الدنيا فأبناء البشر يتساوون في تلك الميزات الأساس.

يقول الســيد محمد حسين الطباطبائي في تفســيره للآية الكريمة ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا

بَنِـــي آدَمَ﴾: «يظهر أن المراد بالآية بيان حال لعامة البشـــر مع الغض عما يختص به بعضهم من الكرامة الخاصة الإلهية، والقرب والفضيلة الروحية المحضة، فالكلام يعم المشركين والكفار والفساق»(١).

وقال الآلوســـي البغدادي: «﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِـــي آدَمَ﴾ أي جعلناهم قاطبة برهم وفاجرهم ذوي كرم، أي شرف ومحاسن لا يحيط بها نطاق الحصر»(٢).

إن القرآن الكريم يقرر مبدأ كرامة الإنســـان لإنسانيته أولًا وقبل كل شيء، فمن أي عرق انحدر، وإلى أي دين وعقيدة انتمى، فهو إنســـان له كرامته الذاتية، ويجب أن يتمتع بحقوقه الإنسانية الكاملة.

وانطلاقًا من هذا المبدأ يقرر القرآن الكريم سيادة شرعه: العدل واحترام حقوق الإنسان، كمنهج ونظام للعلاقة بين بني البشر في هذه الحياة. يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَـــانِ﴾ [ســـورة النحل، الآية: ٩٠] ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [سورة النساء، الآية: ٥٨].

والأنبياء إنما بعثهم الله برســـالاته وشـــرائعه ليقيموا العدل بيـــن الناس: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُـــلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [سورة الحديد، الآية: ٢٥].

والعدل شـــرعة عامة لبني البشـــر، دون نظر لأعراقهم وأديانهم، هكذا يأمر الله رســـوله ﷺ أن يخاطب غير المؤمنين به، يقول تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ [سورة الشورى، الآية: ١٥].

إن وجـــود عداوة أو خصومـــة مع الطرف الآخر لا يبرر الجـــور عليه، وتخطي حـــدود العدل في التعامل معه، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَـــا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ

(١) السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ١٥٢.
(٢) السيد محمد شكري الآلوسي البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن، ج ٥، ص ١١٧.

شُـــهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [سورة المائدة، الآية: ٨].

إنه لا يجوز النيل من أي حق من حقوق أحد من الناس المادية أو المعنوية يقول تعالى: ﴿وَلا تَبْخَسُـــوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [ســورة الأعراف، الآية: ٨٥] وقد تكررت هذه الجملة في ثلاثة موارد من القرآن الكريم.

هذه مبادئ أساســية يقررها القــرآن الكريم لتوطيد الســلم العالمي، ولتحقيق التعايش بين بني البشــر، لكن المؤسف تجاهل هذه المبادئ في أوساط أبناء الأمة الإســلامية، بل ســيادة توجهات على النقيض منها تحت عنوان الجهاد، أو الولاء والبراء، أو مواجهة أهل البدع.

وما أحوج ساحة الأمة إلى خطاب ديني واع يبين حقيقة هذه المفاهيم، ومصاديق تطبيقاتها التي يجب ألا تتنافى مع تلك المبادئ الأساسية التي يقررها القرآن الكريم كقواعد حاكمة على سائر التشريعات والأحكام.

لتعارفوا

هذا الوجود البشـــري الكبير المتنوع في أعراقه، وألوانه، ولغاته وثقافاته، يرجع إلى أصل واحد، كما يؤكّد ذلك القرآن الكريم، وكما تؤكّد النظريات العلمية، فأبناء البشـــر يرجعون إلى أصل واحد، والخالق هو إله واحد وهو اللّه ســـبحانه وتعالى، والمكونات الأســـاس لأبناء البشر متســـاوية في أصل وجودها، وإن كانت متفاوتة في مستويات استخدامها وتفعيلها، فالجوارح والأعضاء الجسمية واحدة عند أبناء البشـــر، وكذلك الحال في المكونات الفكرية، والروحية، والنفســـية هي متشابهة عند أبناء البشـــر، لكن التفاوت يحصل في درجة استخدام هذه الأعضاء الجسمية، والقوى الفكرية، والنفســـية، فهناك من يُفعّل هذه القدرات المادية أو المعنوية أكثر من الآخرين.

هؤلاء البشر كلهم يعودون إلى أصل واحد وخالقهم هو إله واحد، والمقومات الأســـاس في شـــخصياتهم واحدة، لكن شـــاءت حكمة الباري وقدرته جلّ وعلا أن تتنـــوع الخصائـــص، وأن تتفاوت المســـتويات، فالخصائص بين أبناء البشـــر والمستويات متفاوتة، وهذا له أسبابه الطبيعية.

كيف نشأ التفاوت؟

نشأ الناس بداية في محيط واحد، حيث كان أبو البشر آدم يُشكّل العائلة الإنسانية الأولى، مع زوجته حواء و أولادهما، ومع استمرار التناسل البشري انتشر أبناء آدم في أنحاء مختلفة من الأرض، هذا الانتشار جعل كلّ مجموعة تعيش ضمن بيئة تختلف عن البيئة الأخرى، هذا الاختلاف البيئي، والجغرافي، في الحياة الطبيعية، انعكس اختلافًا ماديًّا وثقافيًّا، أشكال حياة الناس قد تختلف في أجواء حارة أو أجواء باردة، في مناطق جبلية أو ساحلية، هذا التفاوت في البيئة الطبيعية التي يعيشها الناس تنعكس اختلافًا على أوضاعهم المادية، واختلافًا في ثقافاتهم، فكل جماعة من البشر تكونت لها لغة خاصة وتقاليد وأعراف من وحي ظروفها البيئية والمعيشية، فحصلت تنوعات وتفاوت بين الجماعات البشرية المتناثرة في أصقاع الأرض، وبمرور الوقت أصبحت البشرية تنقسم إلى قبائل وعشائر، وإلى شعوب وأمم، وهذا التنوع لا ينفي الأصل الواحد.

لذلك تتوجه الآية الكريمة في سورة الحجرات بالخطاب إلى أبناء البشر جميعًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة الحجرات، الآية: ١٣]، والآيات السابقة لها كانت تخاطب المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، هنا انتقل الخطاب من: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾؛ لأنّ الحديث ليس خاصًّا بالمؤمنين، وإنما هو متوجّه إلى الناس باعتبارهم الإنساني، بغض النظر عن أديانهم ومعتقداتهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، خطاب عام لكلّ من ينطبق عليه هذا العنوان، مهما كان لونه، و لغته وعرقه، ودينه، ومذهبه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾، والخطاب من قبل الله سبحانه وتعالى، وفيه إيحاء وتبيين للفلسفة التي تريد الآية أن تصل لها، إنه يمهّد ويؤكّد أرضية الوحدة بين أبناء البشر، ما دام الخالق واحدًا، وليس هناك أحدٌ من البشر من خلق إلهٍ آخر، ولا يوجد إله آخر إلّا الله سبحانه وتعالى، فالتأكيد على

أنّ الخالق واحد، من أجل إعداد الأرضية الفكرية والنفسية، لتوطيد العلاقات بين هؤلاء الذين خلقهم إله واحد.

ثم تشير الآية إلى الحكمة في التنوع، وإلى وحدة الأصل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾، وإنّ الطريقة التي يأتي منها هذا الإنسان من أيّ لون كان ومن أيّ دين كان، هي نفس الطريقة التي يأتي منها الإنسان الآخر، فليس هناك إنسان يأتي للحياة بطريقة متميزة مختلفة، والنتيجة إذًا أنّ الإله واحد، وطريق الخلق إذًا واحدة، ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾، هذا التنوع إنّما حصل بإرادة اللّه تعالى وبحكمته وليس بإرادتكم أنتم.

وفي هذا إيحاء لكلّ إنسان يريد أن يتصور: بأنّ كونه من هذه القبيلة، أو من هذه العائلة مدعاة للتميز، وأنّ كون الآخر من عائلة وقبيلة أخرى سببًا للدونية، هل أنت اخترت انتسابك لهذه القبيلة! وهل ذلك الآخر اختار انتسابه لتلك القبيلة؟ هل أنّ كلّ إنسان قبل مجيئه للحياة يعرض عليه معجم القبائل والأنساب ويقال له: اختر القبيلة التي تريد أن تولد منها، أو تكون منتميًا إليها؟ نحن نعرف الآن أنّ الإنسان في اختياره لتخصصه الدراسي تعرض عليه مختلف الجامعات، وهو يختار الجامعة التي يريد، والتخصص الذي يرغبه، وهو يتحمل مسؤولية اختياره، ونعرف أنّ مختلف القضايا المكتسبة يكون للإنسان رأي فيها، لكنّ انتماءك العائلي، والقبلي، والقومي، والعرقي، لا اختيار لك فيه، فلا فخر لك فيه، ولا يشكل نقطة ضعف لك، المسألة ترتبط بالله سبحانه وتعالى.

الشعوب والقبائل

تكلّم المفسرون حول المقصود بالشعوب والقبائل، وأيّهما أوسع من الآخر، هل أنّ الشعب أوسع من القبيلة، أو أنّ القبيلة أوسع من الشعب، لا شأن لنا في هذا الاختلاف، لكن من حيث الفهم المعاصر نجد أنّ بينهما تداخلًا، يطلق على

كلّ من يعيشــون في وطن واحد، تحت ظلّ نظام واحد، بأنه شعب، ويقال الشعب الأمريكي، الشــعب الياباني، الشعب السعودي، الشــعب العراقي، وهذا الشعب يعتبر إطارًا يســتوعب قبائل مختلفة، هنا يبدو الشعب أوســع من القبيلة؛ لكننا في الوقت نفسه نجد أنّ بعض القبائل لها فروع في مختلف الشعوب والأوطان، وعلى المســتوى العربي نجد أنّ بعض القبائل لها فرع في العراق، وفرع في سورية، وفرع في السعودية، وفروع في مناطق مختلفة.

لتعارفوا

طبيعة الحياة اقتضت أن تكونوا متنوعين في انتماءاتكم الشــعوبية والقبلية، هذا الاختلاف ينعكس اختلافًا في الثقافات، وينبغي أن يكون دافعًا للتعارف.

هذا التنوع هو مظهر من مظاهر القدرة والإبداع الإلهي، كما نجد أنّ الفنان الذي يســتطيع أن يصنع مناظر مختلفة متعددة يبرز قدرته بهــذا التنوع، إنّ الحديقة التي تكون فيها الألوان متنوعة مدعاة لقيمة أكبر لهذه الحديقة، وهذا الوجود البشري هو مظهر من مظاهر القدرة الإلهية، لذلك تعتبر آيات أخرى من القران الكريم اختلاف الألسن والألوان من آيات الله ســبحانه وتعالى، ومظهر من مظاهر العظمة الإلهية يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [سورة الروم، الآية: ٢٢].

قواعد التعارف وآفاقه

التعارف ينبثق من المعرفة، الله سبحانه وتعالى أعطى الإنسان خاصية المعرفة، وقيمته تأتي من تفعيله لهذه الخصيصة، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْــمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [سورة البقرة، الآيتان: ٣١ ـ ٣٢].

ميــزة آدم كانت قابلية المعرفة والعلم، وبذلــك فضّله الله على الملائكة، وأمر

الملائكة بأن يسجدوا له، والتعارف ينبثق من خاصية المعرفة.

إنّ الإنسان القادر على المعرفة، ينبغي له أن يستفيد من التنوع البشري في كسب المعرفة، وعلينا أن نتأمل في كلمة ﴿لِتَعَارَفُوا﴾، يعني أنّ كلّ طرف يتعرف إلى الآخر كحالة متقابلة، ليس تعرّفًا من جهة واحدة فقط، وإنّما من الجهتين، إنّ التعارف قيمة كبيرة في حياة البشـــر، أنت تنتمي إلى دين، والآخر ينتمي إلى دين آخر، أنت تنتمي إلى مذهب، والآخر ينتمي إلى مذهـــب آخر، تنتمي إلى ثقافة وهو ينتمي إلى ثقافة أخرى، إلى قبيلة وهو ينتمي إلى قبيلة أخرى، إلى شـــعب وهو إلى شعب آخر، هذا التنوع فيه تجارب مختلفة، أول مـــا ينبغي أن تهتم به في حالة التنوع أن تتعرف إلى خصائص وصفات الطرف الآخر، هذا ما يجب أن تسعى إليه.

البعض من الناس تحصل عندهم حالة انطواء على ذواتهم، القومية، أو الدينية، أو الفئوية، لا يكون لديهم سعي للتعرف على الطرف الآخر، وتضيق الدائرة إلى أن يكون أناس ضمن مذهب واحـــد، لكن لهم مدارس متعددة، فيعزف كلّ طرف عن التعرف إلى ما عند الطرف الآخر.

وفي بعض الأحيـــان يكوّن له صورة خطأ عن الطرف الآخر، ينشـــغل بها، ولا يســـعى للتعرف الحقيقي، أنا أرســـم في ذهني صورة لصاحـــب المذهب الآخر، وأكتفي بهذه الصورة، وأزعم أنّ هذا هو الآخر، فأقول: الســـنة كذا، الإباضية كذا، الشيعة كذا الزيدية كذا، من قال إنّهم كذا؟ أنا أفتعل صورة، أنا أتقبّل صورة رسمت ضمن بيئة معينة، ولا أســـعى للتعرف الحقيقي، هذه الآية الكريمة تخلق دافعًا لكلّ مؤمـــن، بأن يتعرف إلى الآخرين، كما هم على حقيقتهـــم، فإذا تعرّفت إليهم، تتيح لهـــم الفرصة بأن يتعرفوا إليك، والآية الكريمة تقـــول: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ يعني ـ تبادل ـ المعرفة حتى يتحقق هذا المبدأ وتتحقق هذه القيمة.

ونشير إلى أنّه حتى على المستوى الفردي، بعض الناس لديهم هذا الاهتمام، بأن يتعرفوا إلى الأفراد الآخرين، فإذا جلس في مجلس، وكان إلى جانبه شخص، يندفع

للتعرف إليه، حينما يلتقي شـخصًا يتعرف الإنسان إليه. هنالك رواية عن المفضّل بنِ عُمـرَ الجُعفيُّ قال: دَخلتُ على أبي عبدِ اللّه الإمـام الصادق ﷺ فقالَ لي: مَنْ صَحِبَكَ؟ فقلتُ: رَجُلٌ مِن إخواني، قـالَ: فما فَعَلَ؟ فقلتُ: منْذُ دَخَلتُ المَدينةَ لَم أعرِفْ مَكانَهُ، فقالَ لي: أمَا عَلِمتَ أنَّ مَنْ صَحِبَ مُؤمِنًا أربَعينَ خُطوَةً سَـألَهُ اللهُ عَنهُ يومَ القِيامَةِ؟»[1].

البعض مـن الناس ليس لديه توجـه التعرف إلى الآخريـن، بينما هناك بعض الأشخاص عندهم هذا الاهتمام، بل عندهم براعة، بمجرد أن يلتقي شخصًا يتعرف إليه، يكسـبه، يتبادل معه المعرفة، ثم يفكر كيف يستثمر هذه العلاقة، نحن بحاجة إلى هذا الخلق الحضاري على مسـتوى الأفراد، لن تخسر شيئًا بل ستربح ثروة من المعـارف والأفكار، والتجارب، جرّب أن تهتم بالتعـرف إلى أكبر قدر ممكن من الأشـخاص الذين تكون في محيطهم، أو يكونون في محيطك، بسـبب أو بآخر، فتجد أمامك آفاقًا مفتوحة.

حينما تسـمع عن جماعة معينة، اسـعَ للتعرف إليهم: مَنْ هم، ما أفكارهم، ما آراؤهم، ما مواقفهم، اسـعَ للتعـرف إليهم عبر التواصل المباشـر، أو عبر القراءة عنهم، يذكرون أنه في أمريكا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، أقبل الأمريكيون بشـغف على مطالعة كلّ ما يتعلق بالإسلام والمسلمين، وفرغت المكتبات من كلّ كتاب يرتبط بالإسلام والمسلمين، لماذا؟ لأنّ الأمريكي يسمع في وسائل الإعلام أنّ هذه الحادثة حصلت وخلفها إسلام ومسلمون، فيتساءل:

ما هو الإسلام؟ ومن هم المسلمون؟

صار يبحث، يذهب للمكتبة، يشتري كتابًا، والعلماء المسلمون في أمريكا ـ بعد أحداث الحادي عشـر من سـبتمبر ـ يقولون: صرنا ندعى في الجامعات والمراكز

(١) الشيخ الطوسي، الأمالي، ص ٤١٣، حديث٧٥.

لإلقاء المحاضرات، وفي ذلك دلالة على أنّ الناس هناك يبحثون عن المعرفة، بينما نحن ـ مع الأسـف ـ في كثير من الأحيان نسمع عن جهة، ولا نكلف أنفسنا البحث عنها، ونكتفي بالمعلومات الجاهزة.

إنّها قيمة كبيرة يركّزها القرآن الكريم: قيمة التعارف ﴿لِتَعَارَفُوا﴾.

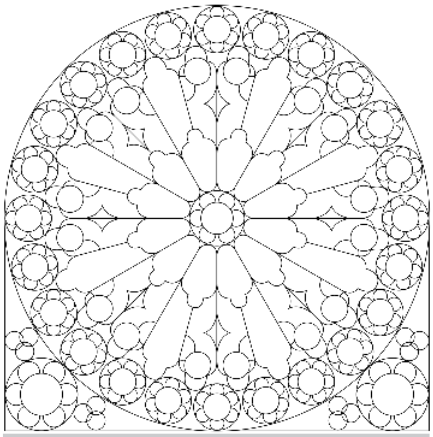

الفصل الثالث

ثقافة الرشد الاجتماعي

قد نتحدث عن الرشد على مستوى الأفراد، فنلحظ فردًا رشيدًا يميز مصلحته ويحسن التصرف والتدبير، في مقابل فرد ضعيف الرأي، لا يتخذ الموقف المناسب فيما يواجهه من ظروف وأوضاع.

وقد نتحدث عن الرشد على مستوى المجتمعات والجماعات، فهناك مجتمع راشد، ومجتمع يفتقد الرشد والنضج، فكيف نقوّم المجتمعات والجماعات على هذا الصعيد؟ وما هي سمات الرشد الاجتماعي؟

في القرآن الحكيم جاء الحديث عن المجتمع الراشد ضمن قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمْ الرَّاشِدُونَ﴾[سورة الحجرات، الآية: ٧].

والآية الكريمة تشير إلى أهم صفة في المجتمع الراشد، وهي الانسجام النفسي والفكري والسلوكي مع المبادئ والقوانين الشرعية.

فالمبدأ الذي يؤمن به المجتمع، تارة يكون مجرد هويّة وعنوان، وتارة يؤخذ المبدأ على أساس التلقي من الأسلاف دون وعي واقتناع، وقد يتفاعل المجتمع مع المبدأ على المستوى الروحي النفسي، لكنه من الناحية العقلية الفكرية لديه

تحفظات وإشـكالات، وقد يحصل العكس بوجود اقتناع فكري نظري، دون توّفر انشداد روحي نفسـي، وقد يكون المبدأ وقوانينه أمرًا مفروضًا على ذلك المجتمع لسبب أو لآخر، وكل تلك الحالات تنبئ عن ضعف وخلل في بنية المجتمع وكيانه، حين يؤمن بعقيدة موروثة دون اقتناع، أو يدين بمبدأ لا يلتزم بتطبيق أنظمته وقوانينه في واقع حياته، أو يخضع لشريعة بالقوة والفرض.

أما المجتمع الراشد الذي تشير إليه الآية الكريمة ﴿أُوْلَئِكَ هُمْ الرَّاشِدُونَ﴾ فهو يتمتع بالصفات التالية:

١. حُبّ العقيدة والمبدأ ﴿حَبَّـبَ إِلَيْكُمْ الإِيمَانَ﴾ بما تحمله كلمة الحب من معاني الانجذاب النفسي، والانشداد الروحي.

٢. الوعي بالمبدأ ﴿وَزَيَّنَهُ فِـي قُلُوبِكُمْ﴾ أي أدركتم بعقولكم صحة منهجكم الإيماني، وأنه الأفضل الذي تزدان به حياتكم.

الردع الذاتي عن المخالفة والانحراف ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ وهو ناتج عن الصفتين السـابقتين، فإذا كان الإنسان محبًا لمبدئه، من أعماق نفسه، وواعيًـا بدينه في فكره وعقله، فإنـه بذاته يكره المعصية، وينفـر من الخروج عن حدود النظام والقانون، وهكذا فإن الحالة العامة في المجتمع الراشد، هي الالتزام والانضباط بدافع ذاتي، واجتناب المخالفة.

بالطبع حينما ينسب الخالق جلّ وعلا لنفسه التحبيب والتكريه، ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمْ﴾ و ﴿وَكَـرَّهَ إِلَيْكُمْ﴾ فإنه لا يعني الإجبـار التكويني على ذلك، وإنما المقصود تهيئة الوسائل والظروف المناسبة، والتوفيق للقبول والاستجابة.

ومن خـلال الآية الكريمة، وعلى ضوء ما حدد به الفقهاء معنى الرشـد، الذي يشترط توفره لإقرار أهلية التعاقد وصلاحية التصرف عند الإنسان، يمكننا الإشارة إلى أهم سمات وصفات المجتمع الراشد:

١. الوعي والمعرفة:

إذا كان الفقهاء يعتبرون القدرة على تمييز المصلحة، والتفريق بين النافع والضار، هو أول مستويات الرشد، التي يترتب عليها الأثر الشرعي والقانوني، لجهة الاعتراف بأهلية الإنسان واستقلال شخصيته، فيمكننا أن نقتبس من ذلك تحديد أول مستويات الرشد الاجتماعي، وهو وعي المجتمع ومعرفته بالأمور والشؤون التي ترتبط بواقعه، ليتمكن من تشخيص مصلحته، والتفريق بين ما ينفعه أو يضره كمجتمع.

إن كثيرًا من الناس في المجتمع يستغرقون في هموهم الذاتية الشخصية، أو ينشغلون بمسائل جانبية ثانوية، ولا يلتفتون لقضايا مجتمعهم، ولا يعون الظروف والاوضاع التي تحوط بأمتهم.

يحدثنا القرآن عن الجماعة الراشدة في العهد الإسلامي الأول، يوم كانوا أقلية في مكة الخاضعة لأجواء الشرك آنذاك، كيف كانوا مهتمين بنتائج معركة بين الروم والفرس، تجري في أدنى أرض الروم وأقرب نقاطها إلى الفرس، ومع هذا البعد الجغرافي، إلا أن المؤمنين في مكة كانوا يتابعون المعركة، وحينما انتصر الفرس المشركون على الروم الكتابيين، تأثر المؤمنون لهزيمة الروم، رغم عدم وجود تواصل أو تحالف بينهم وبينهم، مما يدل على وعي وإدراك بأبعاد تلك الحرب، وآثارها وانعكاساتها، لذلك أنزل اللّه تعالى سورة كاملة من القرآن باسم سورة «الروم»، تتحدث عن تلك المعركة وعن تفاعل المؤمنين مع نتائجها، ويبشرهم بتغير المعادلة خلال فترة زمنية وجيزة، حيث سينتصر الروم في بضع سنين قادمة، يقول تعالى: ﴿الم.* غُلِبَتْ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾[سورة الروم، الآيات: ١-٤].

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار دور الشهادة على العالم الذي أناطه اللّه تعالى

بالمؤمنين ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[سورة البقرة، الآية: ١٤٣]، فإن ذلك يعني ضرورة تطلع المجتمع الإيماني إلى أرفع مستوى من الوعي، يتمكن به من مراقبة التحولات العالمية، والمعادلات الدولية، فضلًا عن وعيه بأوضاعه وقضاياه، يقول الإمام علي عليه السلام: «لا بد للعاقل من ثلاث: أن ينظر في شأنه، ويحفظ لسانه، ويعرف زمانه»[1].

٢. حسن التصرف:

كيف يتصرف المجتمع تجاه الظروف والمشاكل والازمات؟ هل تسوده حالة الاستسلام وانتظار المعجزة من المجهول؟ أم تسيطر عليه الانفعالات والأحاسيس، ويحركه الحماس المجرد عن التخطيط السليم؟ أم يواجه التحديات بتفكير موضوعي، وبرامج حكيمة؟

ويقاس رشد المجتمع ونضجه بما يختار ويسلك من هذه الخيارات، فالانهزام أمام المشكلة، يكشف عن فقد الإرادة وضعف الثقة، بينما الوقوع تحت حالة العاطفة والانفعال، وغياب الحكمة والتعقل، قد يضاعف المشكل ويعمّق الأزمة.

وما يقتضيه الرشد هو حسن التصرف، واتخاذ الموقف المناسب في الظرف المناسب، فقد يستلزم الظرف شدة وقوة، وقد يستدعي حماسة وانفعالًا، وقد يتطلب مرونة واستيعابًا.

وفي سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وآله أروع النماذج والأمثلة لحسن التصرف في الظروف المختلفة، فالمسلمون الأوائل مع رسول اللّه صلى الله عليه وآله كانوا كما وصفهم اللّه تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾[سورة الفتح، الآية: ٢٩]، والمعارك والغزوات التي خاضوها تكشف عن شجاعتهم وتضحياتهم، لكن هؤلاء الأشداء على الكفار، تقبلوا صلح الحديبية في السنة السادسة للّهجرة، بما تضمنته اتفاقية الصلح من شروط لصالح المشركين في ظاهرها

(١) الحسن بن علي بن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٤٤.

وعلى حساب عزة المسلمين، حتى إن بعض الأصحاب سيطرت عليه حالة الحماس والانفعال واعترض على ما حصل، كما يذكر ابن هشام وسائر المؤرخين أن عمر بن الخطاب أتى رسول اللّه ﷺ فقال: يارسول اللّه، ألست برسول اللّه؟ قال: بلى، قال أوَلسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوَليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال: أنا عبد اللّه ورسوله، لن أُخالف أمره، ولن يُضيعني! قال: فكان عمر يقول: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق، من الذي صنعت يومئذٍ مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيرًا[١].

لقد رفض سهيل بن عمرو المفاوض من قبل قريش أن يكتب في وثيقة الصلح: بسم اللّه الرحمن الرحيم، وأصرّ أن يكتب بدلها: باسمك اللّهم. فوافق الرسول ﷺ على ذلك. ثم اعترض سهيل على كلمة «هذا ما صالح عليه محمد رسول اللّه» قائلًا: لو شهدت أنك رسول اللّه لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم ابيك فقط: ووافق الرسول على ذلك أيضًا. واشترط سهيل: أن من أتى محمدًا من قريش بغير أذن وليه ردَّه عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه، ومع أنه شرط مجحف إلا أن الرسول ﷺ وافق عليه، وحدث أن جاء أحد المسلمين المضطهدين في مكة، يجر القيود والأغلال لاجئًا إلى معسكر المسلمين، وهو أبو جندل بن سهيل بن عمرو، فقام له أبوه سهيل وضرب وجهه، وطلب من الرسول أن يرده إلى قريش، وأن يرفض لجوءه، فوافق الرسول على ذلك، فصاح أبو جندل: يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ مما أثار حماس المسلمين لكن الرسول ﷺ قال له: يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن اللّه جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا[٢].

ومع كل ذلك، عدَّ اللّه تعالى هذا الصلح فتحًا مبينًا ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [سورة الفتح، الآية: ١]، لأن نتيجته كانت في الأخير لمصلحة الإسلام، هكذا يجب أن

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ج٣، ص٣٤٦.
(٢) المصدر نفسه: ص٣٤٧.

يتحكم العقل في الموقف، وليس العاطفة المجردة، والمجتمع الراشد هو الذي يقوّم الظرف ويتخذ الموقف المناسب تجاهه بموضوعية وتفكير.

٣. الاستفادة من الإمكانات:

لكل مجتمع إمكاناته الطبيعية والبشرية، التي تختلف وتتفاوت من مجتمع لآخر، وما يمّيز المجتمع الراشد عن غيره، هو الاهتمام باكتشاف الإمكانات، والعمل على استثمارها والاستفادة منها، وتوظيفها في مصلحة تقدم المجتمع.

إن بعض المجتمعات تهمل مواردها الطبيعية، وتتجاهل كفاءات وقدرات أبنائها، بينما تسعى المجتمعات الواعية، لتنمية مواردها، والاستفادة من إمكاناتها الطبيعية والبشرية بأكبر قدر ممكن.

وهذه قبرص الجزيرة الصغيرة القريبة منا تشكل مثالًا للاستفادة من الإمكانات الطبيعية، فهي تقع في الركن الشمالي الشرقي من البحر الابيض المتوسط، وتبعد عن جنوب تركيا ٦٤كم وعن غرب سوريا ١٠٠كم، ويقل سكانها عن السبعمائة ألف نسمة، وهم في مستوى معيشي مرتفع كالأوربيين، وتبلغ نسبة المتعلمين فيهم ٩٠٪ ومع أنهم ليست لديهم ثروات نفطية ومعدنية، لكنهم استثمروا الطبيعة الخلاّبة وحولوا بلادهم إلى منطقة سياحية مهمّة، تشكل السياحة فيها موردًا اقتصاديًا أساسيًا، إضافة إلى الإنتاج الزراعي الوفير.

وفي مجال استثمار الموارد البشرية تقدم اليابان مثلًا رائعًا، حيث تكمن قوتها العلمية والاقتصادية، في تطوير مستوى الأداء التكنلوجي والصناعي لأبنائها، فاليابان الآن قوة اقتصادية عظمى في العالم رغم قلة مواردها الطبيعية، فهي تستورد كثيرًا من الخام التي تحتاجها الصناعات.

وكم تمتلك مجتمعات أمتنا الإسلامية من قدرات وإمكانات هائلة، لكن ما تحتاجه هو التوجه لاستثمارها وتنميتها وتوظيفها من أجل التقدم والازدهار.

حرية الرأي وتقدم المجتمع

التقدم والتخلّف في المجتمعات ليس عفويًّا، أو يأتي بالصدفة، أو حسن وسوء الحظّ، وإنما هناك وضع يعيشه المجتمع ينتج تخلفًا أو تقدّمًا.

لذلك فبالإمكان التنبؤ بمســتقبل أي مجتمع، من خلال دراســة ما يعيشــه من عقليات وسلوكيات يتطبّع بها أفراده، فإذا كانت هذه العقليات والسلوكيات منتجة للنهوض، فإن مجتمعها مرشّح للتقدّم، بينما لو كانت منتجة للجمود والتحجّر، فإن المجتمع الخاضع لها سيعيش حالة من التخلّف.

لذلك فإن الآية الكريمة ﴿فَبَشِّــرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [سورة الزمر: الآيتان ١٧ ـ ١٨]، تعبّر بِـ (بشِّرْ) أي يا محمد انشر البشارة، ومن المعروف أن البشارة هي: الإخبار بما يسرّ، وعلى العكس منها الإنذار الذي يعني التحذير من وقوع ما يضر.

والآية تبشِّــرُ الذين تتوفّر فيهم الصفة التالية: ﴿الَّذِينَ يَسْــتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾.

فمــن تتوقّع منهم الصلاح والتقــدّم هم من يتّصفون بهــذه الصفة، بينما الذين يتصفون بالصفة المعاكسة متوقّع لهم التخلّف والشر.

الآية تتحدّث عن صفات إذا انتشرت في مجتمع مّا فيمكننا أن نتوقّع له الخير.

الإيمان وحرّية التعبير:

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ﴾: هناك فرق بين السماع والاستماع، فالاستماع فيه تقصّد وتعمّد، ومن ذلك نستفيد أن الآية تتحدث عن المجتمع الذي يتقصّد فيه أفراده الاطلاع على الأقوال والأفكار المختلفة والمتعددة.

﴿الْقَوْلَ﴾: ذكر المفسّرون للقول في هذه الآية معنيين، هما:

الأول: أن المقصود بالقول في الآية مطلق القول، أي الفكرة، ومجموعة الآراء.

الثاني: أن المراد بالقول هنا خصوص القرآن الكريم.

ومن قال بالرأي الثاني وقع في مشكلة تحديد الأحسن من القرآن الكريم، حيث من المفترض أن القرآن لا يوجد بين آياته ذلك التفاضل والتفاوت بحيث يكون هناك حسن وأحسن.

ولحل هذه المشكلة وجّهوا الآية بأن المراد من ذلك أن القرآن فيه تشريع للمباحات، ودعوة للمستحبات، فالمؤمن هو من يتّبع الأحسن منهما، وهو هنا المستحب، لأنه الأولى والمثاب عليه. وضربوا لذلك مثلًا بتشريع القرآن للقصاص ثم دعوته للعفو، فمع أنه يحق للمسلم أن يأخذ بالقصاص، لكنه يميل إلى العفو، وهو الأحسن.

وعلى الرأي الأول ـ وهو ما قد ينصرف إليه معنى الآية ـ تعتبر الآية أن المؤمن الذي له البشارة هو من يتقصّد استماع مختلف الآراء والأفكار فيتبع أحسنها.

ومن الطبيعي أن اتباع رأي أو فكرة معينة لا يأتي إلا بعد روّية وتفكّر وتأمّل.

والآية هنا ترشدنا إلى أن يتدبّر كل منّا الآراء والأفكار، ويتأمل فيها، ويقارن بينها، على أن تكون مقارنته بين الحسن والأحسن، ولا يكون تأمله وتفكيره سطحيًّا

ودون تعمّق، فتكون مقارنته بين ما هو سيئ وما هو حسن فقط، بل بين الحسن والأحسن.

وهذا الإرشاد من الآية الكريمة يوجهنا إلى نقطة مهمّة، هي: أن الإنسان لا يستطيع أن يدّعي أنه اختار الفكرة والرأي الأحسن، إلا عندما يطّلع على جميع الأفكار، لذلك فالمجتمع الواعي من تطرح فيه جميع الآراء والأفكار، دون أي حظر أو منع ليختار بنوه الأحسن منها.

وبعبارة أخرى: إن الآية تبشّر المجتمع الذي يعيش حالة من حرية الرأي والتعبير، وتعده هو المجتمع الأقرب للهدى.

القدماء لم يكونوا يقصون الرأي الآخر:

حرية الرأي وطرح الآراء المتعدّدة كانت هي السائدة في تراثنا القديم، فنجد في الكتب النحوية القديمة ـ مثلًا ـ الرأي البصري بجانب الكوفي، يذكرهما المؤلف ويناقشهما.

وكذلك نجد في كتب اللغة ذكر الوجوه المتعدّدة للمفردة الواحدة، من غير إقصاء لأي وجه، ولو كان شاذًّا.

وحينما نراجع تفاسير القرآن، نجد المفسرين يستعرضون مختلف الآراء في تفسير الآية، ويرجّحون منها ما يتبنونه من رأي. لذلك فكتب التفاسير القديمة تشكّل ثروة من الآراء حول تفسيرات القرآن الكريم.

وفي كتب الفقه وأصوله، نجد العلماء يبحثون الآراء في كل مسألة، ويرجحون منها رأيهم الذي يؤمنون به بعد نقاش علمي جادّ.

وفي كتب التراث نجد الرأي المشهور بجانب الرأي الشاذ، فالعبرة بالدليل وليس بشيوع أو شذوذ الرأي، إذ ربما يكون الرأي الشاذ يحمل في داخله دليلًا يقوّيه.

المجتمعات الإسلامية وأحادية الفكر:

لكن حالة التخلّف أوجدت سيادة الرأي الواحد في مجتمعاتنا الإسلامية، ورفض طرح أي رأي مخالف فيها، بينما في المجتمعات المتقدّمة يكون الرأي الآخر جزءًا من الحالة الاجتماعية، على مختلف الصعد السياسية والعلمية والفكرية.

وما تعيشه مجتمعاتنا اليوم مخالف لما تطرحه الآية، فالله سبحانه وتعالى ـ في هذه الآية ـ يطلب منّا أن نستمع لمختلف الآراء ونتّبع أحسنها، فكيف نبحث في الآراء إذا كنّا نقصيها ونرفضها.

إن البعض بمجرّد أن يسمع رأيا مخالفًا لما ورثه من ثقافة سائدة، يعتبر من يطرح هذا الرأي «ضالًّا» و «خائنًا» و «منحرفًا» فكريًّا وعقائديًّا، وغيرها من التّهم الجاهزة، وهذا من مظاهر التخلّف في هذه المجتمعات.

من المفترض أن تكون هناك فرصة لطرح الآراء، وعلى الناس أن يستخدموا عقولهم لمحاكمة هذه الآراء، انطلاقًا من إمكانية الاعتماد على العقل وعدم تعطيله.

وكذلك لأنه الحجّة الباطنة التي يحجنا الله بها يوم القيامة، فكما يحتجّ على الإنسان بالحجة الظاهرة وهم الرسل يحتج عليهم بالعقل.

آليات تقبّل الرأي الآخر في المجتمع:

إن المجتمعات التي تعيش أحادية الرأي والفكر لا يمكن أن تتقدّم وتتغير سلوكياتها إلا بعاملين:

الأول: وجود جرأة في طرح الرأي

وفي هذه المجتمعات المتخلّفة لا تكون الظروف مهيأة لمثل هذه الخطوة، بل تكون الجرأة مكلفة، وغالبًا ما يكون الروّاد الأوائل هم الذين يدفعون ثمن جرأتهم، وقد يكون الثمن باهظًا يصل إلى درجة القتل في بعض الأحيان.

ولكــن لتغيير الذهنيات والســلوكيات الاجتماعية المســيطرة يجب أن يكون هناك إصــرار على طرح الرأي، وذلك لكي يعلن هذا الــرأي وليعرف متبنوه مدى مصداقيتــه، حتى تنضج حوله الفكرة من خلال الــردّ والردّ المقابل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ليمهّد هذا الطرح السبيل لأن تطرح آراء أخرى من قبل الآخرين.

الثاني: احترام الرأي من قبل المجتمع

بحيث يتعوّد المجتمع أن يقبل طرح فكرة مغايرة لمألوفهِ، ويناقش من يطرحها نقاشًــا علميًّا جادًّا، أمــا إذا كان هناك قمع فكري لكل مــن يتجرأ على طرح الرأي المخالف، فــلا يمكن لهذا المجتمع أن يتقدّم، فالآية تبشّــر من يســتمع ويناقش ويتفكّر، لا مَنْ يرفض إعطاء الفرصة لطرح الرأي الآخر.

النقد الذاتي الاجتماعي

يُقســم الله ســبحانه وتعالى في هاتين الآيتيــن الكريمتين بأمريــن عظيمين: يقول تعالى: ﴿لا أُقْسِــمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلا أُقْسِــمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [ســورة القيامة: الآيتان ١-٢].

الأول: القسم بيوم القيامة، ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، و﴿لا﴾ ليست نافية للقسم، وإنما مؤكدة له. ومعروف للجميع عظمة وأهمية يوم القيامة، إنه اليوم الذي يُحشــر فيه الناس ويُحاسبون، ويتقرر مصيرهم الأبدي.

الثاني: القسم بالنفس اللوامة، ﴿وَلا أُقْسِــمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾، واقتران الأمرين في القسم يُشعر بأنهما على درجةٍ متقاربة من العظمة والمكانة.

ما هي النفس اللوامة؟

اللوامة: من اللوم، وهو معاتبة الإنســان نفســه، ومراجعته لها، لكي يُحاســبها على الخطأ. وعندما تكون هذه الحالة دائمة عند الإنسان، يُطلق على نفسه: النفس اللوامة.

الله سبحانه وتعالى جعل في نفس الإنسان هذه الخاصية، تمامًا كوجود المناعة في جسم الإنســان ضد الأمراض، وإذا اخترق نظام المناعة في جسم الإنسان فإن

حياته تكــون معرّضة لجميع الأخطــار، وهذا ما يُعبر عنــه الآن بالمرض الخطير (الإيدز).

و(النفس اللوامة) نظام مناعة روحي عند الإنســان، في مقابل جراثيم الذنوب والأخطاء، فمن طبيعة الإنســان أنه إذا أخطأ تحرّك ضميره وأشــعره بالخطأ، وفي لحظات التأمل يُحاسب الإنسان نفســه على أخطائه. ولكن إذا فُقدت هذه الحالة، بسبب تراكم الذنوب والأخطاء، عندها لا يعود الخطأ باعثًا للمحاسبة والمراجعة. فيخرج الإنسان من دائرة (النفس اللوامة) ويبقى منحصرًا في دائرة (النفس الأمارة)، ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾، ويكون الإنسان حينها في منطقة الخطر والهلاك، إلا أن يُنقذه الله تعالى، ﴿إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾.

النقد الذاتي ضرورة وصعوبة:

النفس اللوامة: تعني أن الإنسان يواجه نفســه، ويُحاسبها على الأخطاء، وهذا أمرٌ مهم، لأن محاســبة النفس والنقد الذاتي بمقــدار ما هي عملية ضرورية إلا أنها عملية صعبة.

النقد الذاتي ضرورة، لأن الإنســان إذا لم يقم بنقد ذاته يسترسل في الخطأ، أما إذا انتقد ذاته وحاسب نفسه فإنه يُنقذ ها من ذلك الخطأ ويتجاوزه. وهي تُشبه إجراء الفحوصات الدورية على الجســم لاكتشــاف أعراض الأمراض، ومعالجتها قبل استحكامها في الجسم.

فالنقد الذاتي ضرورة، ولكن فيه صعوبة، سواء على الصعيد الفردي أو الاجتماعي.

على المستوى الفردي:

أولًا: النقد الذاتي يُحمل الإنســان مســؤولية التغيير، والمواجهة مع الشهوات الأهواء.

فالخطـأ إنما يحصل بسـبب الهوى والغفلـة، وحينما يقوم الإنسـان بعملية النقـد الذاتي، يكون وجهًا لوجه أمام داعي الهوى والشـهوة، وأمـام حالة الغفلة والاسترسال، وهذه عملية صعبة.

ففي كثير من الأحيان، إذا سـيطر الهوى على نفس الإنسـان، فإنه يبقى منشدّا لهواه وشـهوته. إنـه في لحظة التأمل يُـدرك ضرورة تجاوز الخطـأ، لكن جاذبية الهوى والشـهوة تجعل عملية الارتداع عن الخطأ عملية صعبة، فيبقى الإنسان في حالة صراع مع نفسـه، لذلك تجد البعض من أجل أن يُريح نفسه من هذه المعركة والصراع الداخلي، يبتعد كليًا عن محاسبة نفسه ومراجعتها.

ثانيًا: النقد الذاتي يُشعر الإنسان أنه في موقف هزيمة وتراجع.

الإنسـان عندما يكون له رأي معين أو موقف، فإنـه عندما ينتقد ذاته، قد تكون نتيجـة ذلـك أن يتراجع عن رأيه وموقفه، وهذا يُشـعره بأنه في حالـة هزيمة أمام الآخرين، وغرور الإنسـان لا يسمح له بأن يضع نفسه في هذا الموضع، فيكابر ولا يعترف بخطئه، حتى لا يظهر أمام الآخرين وكأنه انهزم.

على المستوى الاجتماعي:

كل مجتمع مـن المجتمعات معرض لأن تكون فيه أخطاء، في الأفكار وأنماط السلوك. وقد لا تكون الفكرة أو السلوك خطأ محضًا، وإنما تغير الظروف والأوضاع تجعله خطأ، فقد تكون ممارسـة من الممارسات في وقت من الأوقات صحيحة، ولكن مع تغير الزمن تُصبح تلك الممارسة خطأً وتحتاج إلى تغيير ومعالجة.

وغالبًا ما يكون النقد الذاتي في المجتمعات أمرًا صعبًا، وخاصةً في المجتمعات التي تغيب فيها الأجواء المسـاعدة على النقد، مثل حرية التعبير عن الرأي وحرية الفكر. هنـا يُصبح المجتمع في حالة تنزيه لذاته، ويكـون هناك غفلة عن الثغرات الداخلية، وغالبًا ما تكون وسيلة التغطية على المشاكل الداخلية توجيه الأنظار إلى

العدو الخارجي.

فنجد أن بعض الأنظمة السياسية توجه الأنظار للأعداء الخارجيين، وتحاول بين فترةٍ وأخرى افتعال مشكلة خارجية، حتى تصرف أنظار الناس عن المشاكل الداخلية الموجودة.

وعلى المستوى الثقافي والاجتماعي تجد أن الناس يتحركون باندفاع ضد مشكلة خارجية، لكنهم بصعوبةٍ بالغة يتحركون ضدّ خطأٍ في الداخل.

لماذا يسهل علينا الاعتراض على عدوان الآخرين علينا، لكن في المقابل نتغاضى عن الأخطاء الداخلية؟

وتجد مثل هذه الحالة قائمة بين المذاهب المختلفة أيضًا، فكل طرف يتجه نحو أخطاء الطرف الآخر، فالشيعي يبحث في الأخطاء الموجودة في كتب السنة، وهو بذلك يُحقق رصيدًا إيجابيًا بين جماعته، وكذلك الحال بالنسبة للسني. ولكن هل يتمكن الباحث الشيعي أو السني من مناقشة الأخطاء الموجودة في تراثه؟ لذلك أصبحت الأخطاء مغضوضًا عنها، وأصبحنا ننطوي على الأخطاء الموجودة في التراث والتقاليد.

هذه الحالة سائدة في المجتمعات المتخلفة، أما المجتمعات المتقدمة فإن حالة النقد الذاتي متوفرة، إن المعارضة فيها جزءٌ من النظام السياسي، بينما في غالب المجتمعات العربية تُعتبر المعارضة إجرامًا.

ولو قرأ الإنسان مذكرات كبار العلماء عند السنة أو الشيعة، يجد أن من يتوجه للنقد الذاتي الداخلي في المجال الديني والثقافي يُنبذ ويُحاصر.

والأسوأ من ذلك أن الأجواء الدينية تواجه حتى التطوير في الوسائل بمعارضة شديدةٍ، فضلًا عن نقد التراث والممارسات.

وهنا سؤال يطرح نفسه: هل نحن متأكدون أن كل الأفكار والممارسات في مجتمعنا صحيحة؟ وإذا كانت صحيحة، أليس هناك ما هو أصح منها؟!

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[سورة الزمر: الآية ١٨].

فلماذا لا يكون هناك مجال للنقد؟

هناك عدة أسباب تعترض حرية النقد:

أولًا: شعور يسود البعض بأن انتقاد بعض الأمور وإن كانت جانبية، يعرّض مجمل البناء للهدم. ولكن كما يجب علينا أن نخاف من أن يكون هناك تفريط، فإن الحذر من الإفراط مطلوب، وكما نخاف من أن نقد غير الصحيح قد يطال الصحيح، فإنه يجب علينا أن نخاف من أن السكوت على غير الصحيح قد يقودنا إلى خطأٍ آخر، وقد يُعمّق الأخطاء الموجودة.

ثانيًا: القول بأن عملية النقد تُظهر ضعفنا أمام الآخرين. وهذا الكلام مضى وقته، لأنه لم يَعد هناك أمور مخفية. بل إن النقد الذاتي أصبح الآن مظهر قوة وليس مظهر ضعف، فالجهة التي تنتقد ذاتها، وتُصحح أخطاءها، أقرب إلى الاحترام من الجهة التي تتستر على الأخطاء. وإذا كانت المسألة ذات بعد ديني، فهناك مسؤولية دينية، فبأي حق نتستر على خطأ فيه ضرر على الدين، ومصالح المؤمنين، بهذه المبررات الواهية؟

ثالثًا: وجود قوى منافسة في كل مجتمع تحمي الحالة السائدة، ففي المجتمع بعض الجهات تعتبر أن من مسؤوليتها حماية الحالة السائدة، فليس لديهم قضية يُدافعون عنها أو يُبرزون قوتهم فيها، فيكون الدفاع عن السائد هو ساحتهم وميدانهم لاستقطاب الآخرين إليهم، لذلك تجدهم يرفضون أي نقد، أو تصحيح، أو تطوير، وهذا يؤدي إلى أمرين:

الأول: أن نقاط الضعف تبقى في المجتمع، فتضعفه أمام الآخرين.

الثاني: حصول ردود فعل داخل المجتمع عند الشباب والناشئة، الذين ينفرون من الأفكار والحالات غير المقنعة.

بالطبــع لا يعني هذا أن أي نقد هو مصيب وصحيح، فقــد يكون هناك خطأ أو اشتباه في تشخيص ما يستحق النقد، ولكن ما نصبو إليه هو ألا يكون النقد جريمة، وألا يكون الحديث عن الخطأ مرفوضًا. والمشكلة أن هذا الإرهاب الفكري يطال العلماء والمفكرين فــي المجتمع، فيقعد بهم عن إعــلان موقفهم أو رأيهم، تجاه أي قضية أو ممارســة في المجتمع. وهذا وضعٌ خطير على مســتوى المجتمعات والطوائف، وعلى مستوى الأمة الإسلامية بشكلٍ عام.

وأين نحن عن النصوص التي تدعو الإنســان المســلم لمحاســبة نفسه، يقول الإمام علي عليه السلام: «مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ رَبِحَ، وَمَنْ غَفَلَ عَنْهَا خَسِرَ»[1]، ويقول عليه السلام: «ثَمَرَةُ الْمُحاسَبَةِ إِصْلاحُ النَّفْسِ»[2].

وأيضًا: لماذا لا نســتفيد من تجارب الآخرين، وبقية المجتمعات التي شرّعت النقد في مجتمعاتها فتقدمت، بينما مجتمعاتنا تعيش حالة ممانعة من أي نقد ذاتي.

إن النقد عامل قوة للمجتمع وإيضاح للحقيقة.

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم: ٢٠٨.

(٢) عبدالواحد الآمدي التميمي، غرر الحكم ودرر الكلم، ص٣٢٩.

الآلام والآمال بين الأقوال والأعمال

احتكاك الإنســان بهذه الحياة يُنتجُ لديه رغبات وتطلعات، كما أن طبيعة الحياة فيهــا عوائق أمام ما يطمح إليه الإنســان ويرغب فيه. وهنا ينقســم الناس إلى ثلاثة أقسام:

القســم الأول: هو من يلتزم الصمت؛ يرغب في شــيء ما، ولكن تبقى الرغبة حبيســة في نفسه، لا يظهرها لأحد. يواجه عوائق تعترض طريق تقدمه، فيتألم منها، لكن يبقى ألمه حبيسًا في نفسه، لا يشرك أحدًا بما يحس.

القســم الثاني: هو من يحترف الحديث والتعبير عما بداخله؛ يتحدث عن آلامه التي يعاني منها، وعن آماله التي يتطلع إليها، ويريد تحقيقها، يفصح عما بداخله في أي فرصة تتاح له. وهذا القسم يعتبر درجة متقدمة عن القسم السابق.

القســم الثالث: هو من يســعى ويجتهد لتحقيق تطلعاتــه، ولإزالة العوائق من طريقه، وهذا هو الأفضل. لا يُبقي الرغبة حبيسة في نفسه، ولا يكتفي بالتحدث عما بداخلــه، وإنما يجتهد لتحقيق تلك الرغبة، ويفكر كيف يحققها، ويخطط، ويكثف جهده العملي حتى يحقق ما يريد.

العوائق ليســت قدرًا مفروضًا، حتى يقف الإنســان أمامهــا مكتوف الأيدي.

والمؤمن في صورته الصحيحة هو من الصنف الثالث.

لذلك يقول الله تعالى في سورة الصف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [سورة الصف الآيتان ٢-٣]. لماذا تكون التطلعات لديكم مجرد حديث وكلام، لماذا لا تسعون وتجتهدون لتحقيق ما تصبون إليه؟

ولماذا لا تطبقون وتنفذون ما تؤمنون به؟!

﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ﴾ والمقت هو الغضب الشديد.

هذا من حيث الأفراد، وبما أن الأفراد في مجموعهم يشكلون المجتمع، فالأصناف الثلاثة ذاتها تنطبق على المجتمعات، وهو ما نريد الحديث عنه.

مجتمع الصمت:

بعض المجتمعات تبقى أمالهم وآلامهم حبيسة في نفوسهم، لا يصرحون بها، إما لسبب سياسي أو اجتماعي، أو لأي سبب آخر، وفي بعض الأحيان ينكرونها، فإذا ما سئلوا عن أوضاعهم أجابوا بعكس ما يريدون وما يشكون، بأن أوضاعهم طيبة ولا ينقصهم شيء، فيبدو للسائل أن حالهم على ما يرام.

مجتمع الكلام:

هي مجتمعات تحترف الحديث عما بداخلها، في أي مجلس تجد حديثًا واسعًا ومفصلًا عما يريدون ويتطلعون إليه، وعن المشاكل التي يواجهونها، لكن ذلك يبقى مجرد أحاديث في المجالس، ومنتديات الإنترنت واللقاءات، ليس هناك خطة عملية يتحركون من خلالها. وقد أصبحت بعض منتديات الإنترنت مجلسًا عامرًا للتحدث والكتابة بلا مسؤولية غالبًا، خاصة عندما يكون الاسم مستعارًا، حتى إنك تحسّ أن من يكتب لن يرضى إلا بحل المشكلة ومعالجتها من جذورها، ولكن

بمجرد أن ينهي حديثه يحسّ بأن دوره انتهى، ويمضي لينام قرير العين.

مجرد الحديث من دون عمل لن يحقق شيئًا. جاء في الرواية عن رسول الله ﷺ يوصي الإمام عليًا عليه السلام: «يَا عَلِيُّ: لَا خَيْرَ فِي القَوْلِ إِلَّا مَعَ الْفِعْلِ»[1] تتحدث عن مشكلة ما، إذًا لا بد أن تضع لها برنامجًا عمليًّا لحلها.

مجتمع الفعل:

هي المجتمعات ذات الفاعلية والنشاط، تجتهد لتحقيق آمالها، وتعمل المستحيل لمعالجة آلامها. وهي المجتمعات التي تريد التقدم وتحسين أوضاعها، يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «زِيادَةُ الْفِعْلِ عَلى الْقَوْلِ أَحْسَنُ فَضيلَةٍ، وَنَقْصُ الْفِعْلِ عَنِ الْقَوْلِ أَقْبَحُ رَذيلَةٍ»[2]. أي إن المجتمعات التي يكون فعلها أكثر من قولها تعيش حالًا حسنًا، بخلاف من يكون قولها أكثر من فعلها.

مجتمعاتنا والمجتمعات الغربية

الآية الكريمة تريد أن تنقل مجتمع المؤمنين إلى المرحلة الصحيحة، مرحلة العمل والسعي الحثيث، أيها المؤمنون! لا تحترفوا الحديث عن آلامكم وآمالكم، وإنما يجب أن تباشروا العمل من أجل تحقيق تلك الآمال، وتجاوز تلك الآلام.

إذا نظرنا في ضوء هذه الفكرة إلى واقع مجتمعاتنا الإسلامية، وقارناها بواقع المجتمعات الغربية المتقدمة، سنجد الفرق كبيرًا جدًا.

لو كُلف باحث بإعداد قائمة يرصد فيها آلام وآمال بلد ما من بلاد المجتمعات الإسلامية، فلا شك أنه سيحصل على قائمة طويلة لتلك الرغبات والمشاكل. لكنه لو أراد أن يحصي المشاريع العملية فيما يخص الآمال والآلام، فلن يجد إلا شيئًا

(١) الشيخ الصدوق: من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٣٦٩.
(٢) غرر الحكم والكلم، ص٢٧٦.

متواضعًا لا يستحق الذكر.

بينما حين يطّلع الإنسان على واقع المجتمعات المتقدمة ذات الفاعلية والنشاط، فلن يرى هناك مسافة كبيرة بين الآمال والأعمال، لأنها مجتمعات تتحرك فور نضوج أي فكرة لأي أمل أو ألم.

في مجتمعاتنا هناك مشـــاكل مزمنة ولم يتم الســـعي بعد لحلهـــا. وأقرب مثل واضـــح؛ الأمراض. نحن نعاني من الأمراض، والآخرون يعانون كذلك، ولكن في المجتمعات الغربية تجد ســـعيًا حثيثًا لإيجاد العـــلاج، أما نحن فننتظر أن يأتينا هذا العلاج!

في المجتمعات الغربية ترصد مبالغ كبيـــرة لعلاج الأمراض الخطيرة كالأيدز، والسرطان، فضلًا عن الأمراض الشائعة، أما نحن فنبكي منتظرين رحمة الله تعالى وفرجه، منبهرين بما وصل إليه الغرب من تقدم، ناظرين إلى وقت يجودون فيه علينا بما توصلوا إليه!

تلك المجتمعـــات لا تكتفي بإيجاد العلاج فقط، بل بعمل بحوث ودراســـات لتطوير العلاج ذاته، ونحن نبقى هكذا، لا نقدم ولا نؤخر!

لو اقتربنا إلى مشاكلنا الاجتماعية، نرى أن مجتمعاتنا احترفت فن الحديث حول المشـــاكل، ولو سألَنا أحدًا عن مدى معاناتنا لهذه المشكلة؟ سنقول بملئ الفم: من زمن بعيد!

ظواهر سلبية:

يمكننا أن نرصد الظواهر التالية التي تبرز في مجتمعاتنا:

الاستغراق في وصف المشكلة والفضفضة حولها

حينما تتحدث عن مشـــكلة مـــا، تجد من يزيدك من الشـــعر أبياتًا، ومن الرواية

فصولًا. تفاصيل كثيرة، لكن دون أن نستثمرها للوصول إلى حلّ. كل أحاديثنا تتجه لزيادة قائمة المشـــاكل وتوصيفها، لكن قوائم الحلول مغيبة، أو بالأصح ملغية، لا تفكير، ولا بذل، ولا تخطيط، ولا تطوير، هذا ما يكون في الغالب الأعم، وهنا يأتي خطـــاب الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ لماذا تجترون الكلام فقط، ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ إن غضب الله يشـــتد على من يكون قوله خلاف عمله.

بعض الخطباء مثلًا يصفون المشـــكلة بتفاصيلهـــا، وفي بعض الأحيان يضفون عليها بعض المحسنات البديعية، لشدّ انتباه المستمع، والناس ينبهرون مما يسمعون ويتشـــكرون من الخطيب لحسن عرضه للمشكلة، ولتلمسه ما يحسون به. ونستمر هكذا في كل ســـنة نتفنن في عرض المشكلة ذاتها أو مشاكل أخر، ولكن هل نطرح حلولًا لهذه المشاكل؟!

هناك إشباع في توصيف المشـــاكل، والمبالغة في الوصف، وهذه حالة سلبية، فهي تستهلك طاقة الإنسان النفسية، ورد عن الإمام الباقر عن أبيه زين العابدين عليهما السلام يقول: «مَا أَكْثَرَ الْوَصْفَ وَأَقَلَّ الْفِعْلَ، إِنَّ أَهْلَ الْفِعْلِ قَلِيلٌ، إِنَّ أَهْلَ الْفِعْلِ قَلِيلٌ»[1].

ما دام الإنســـان مندفعًا متحمسًا فعليه أن يتحرك، لا أن يفرغ طاقة الحماس هذه في الكلام، وإخراج ما في النفس من هم، فذاك يوحي له بأن دوره قد انتهى، ويشعر براحة بعدما يفصح عما بداخله، وهذا أســـلوب مستخدم في العلاج النفسي لحل المشاكل الشخصية.

الســـعي أمر ضروري لحل المشـــكلات، كما هو المثل المعروف بين الناس: «منك الحركة ومن اللَّه البركة».

اجترار الكلام هكذا من دون عمل لن يقدم ولن يؤخر.

---

(١) الكافي، ج٨، ص١٩٠.

صفة المؤمـــن كثرة العمل وقلة الكلام، وإذا ما انعكســـت هذه الصفة صار في عداد المنافقين كما روي عن الإمام الكاظم في وصيته لتلميذه هشام بن الحكم: «يَا هِشامُ قالَ رَسوُلُ اللّهِ ﷺ:... المُؤْمِنُ قَليلُ الكَلامِ كَثيرُ العَمَلِ، وَالمُنافِقُ كَثيرُ الكَلامِ قَليلُ العَمَلِ»[1].

إلقاء المسؤوليات على الآخرين

فـــي كثير من الأحيان نقف مكتوفي الأيدي، متوقعين الحل من جهة ما، ســـواء كانت خارجية أو داخلية، وأحيانًا نعلّق آمالنا على شخص أو تيار معيّن، تارة لحسن ظن، وتارة لنلقي المسؤوليات على غيرنا بقصد الإحراج والتشويش، أو لكي نخلي أنفسنا من المسؤولية وهذا غير صحيح، رسول الله ﷺ كان يوصي الصحابي الجليل عبد الله بن مســـعود: «يَا اِبْنَ مَسْعُودٍ! فَلاَ تَكُنْ مِمَّنْ يُشَدِّدُ عَلَى اَلنَّاسِ وَيُخَفِّفُ عَلَى نَفْسِهِ، يَقُولُ اَللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾»[2]، لا تلزم الناس بمسؤوليات وتنسى نفسك.

المتصدي لحل مشاكل مجتمعه في تلك المجتمعات المتقدمة، يلقى زخمًا من التشـــجيع والشكر والعطاء، وكأنهم بلسان الحال يقولون: اذهب أنت وربك فقاتلا إنـــا معكم مقاتلون، خلاف مـــن تعيبهم الآية الكريمة التي تنطبـــق على مجتمعاتنا الاتكالية: ﴿فَاذْهَبْ أَنْـــتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [ســـورة المائدة: الآية ٢٤]. من يتصدى لحل المشـــاكل في مجتمعاتنا يلقى الويلات، فعند حدوث أي تعويق وتأخير يحمّلونه المســـؤولية، وكأنه السبب في ذلك، وعندما يسعى لحلها وينجح في ذلك، فلن تجد من يشكره ويبذل معه، إلا القليل! وويله إذا لم ينجح سعيه!!

المجتمع الطبيعي الفاعل لا يتلخص في شخص ما، أو جهة ما، أفراد المجتمع كلهم مسؤولون ومطالبون بالتحرك والعمل.

(١) تحف العقول عن آل الرسول، ص٢٩٣.

(٢) بحار الأنوار، ج٧٤، ص١٠٩، باب مواعظ النبي ﷺ لابن مسعود.

إن مجتمعاتنا بحاجة إلى الانتقال للدائرة الثالثة، يكفينا حديثًا عن الآمال والآلام، نريد عملًا، نريد حلًا لما نشكو منه. لو استخدمنا ٢٠٪ من الطاقة المبذولة في حديثنا عما نريد، وصرفناها في التفكير وإيجاد الحلول المناسبة والعمل والتحرك، لحققنا الشيء الكثير، ولأمير المؤمنين علي عليه السلام رواية جميلة تقول: «غَضَبُ الجَاهِلِ في قَولِهِ، وغَضَبُ العَاقِلِ في فِعلِهِ»[1].

(١) بحار الأنوار، ج١، ص١٦٠، حديث ٤٣.

الجرأة في طرح الآراء الإصلاحية

تتحدث الآية ٣٧ من ســورة الأحزاب وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِــكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِــكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا﴾ عن قضية حدثت في المدينة المنورة، في الســنة الخامسة للهجرة، ذلك أن الرســول ﷺ كان له غلام وهبته له زوجته خديجــة بنت خويلد ﷺ، هو «زيد بن حارثة بن شــراحبيل الكلبي» كانت قد تملّكته بالطرق التي كان يُتملَّك بها الأرقّاء والعبيد من خلال المعارك، حيث يؤســر الأفراد ويباعــون من قبل القوّة المنتصرة التي تأســرهم. وزيد كان غلامًا صغيرًا حينما أسر في إحدى المعارك، بيع فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة، ثم وهبته للرسول ﷺ بعد زواجها به، وكان عمر زيد آنذاك ثماني سنوات.

وبعد فترة جاء أهله يبحثون عنه، حتّى يستعيدوه بأي ثمن، فخيّر رسولُ الله ﷺ زيدًا بين أن يبقى معه أو يذهب مع أهله، فاختار زيد البقاء مع الرســول ﷺ قائلًا: ما أنا بالذي أختار عليك أحدًا.

فقام الرسول ﷺ بتبنيه ضمن ما هو سائد في الجاهلية.

وكان متعارفًا في الجاهلية: أن الرجل إذا تبنى شـــخصًا يصبح بالنسبة له بحكم الولد الصلبي، أي تترتّب عليه ـ عندهم ـ جميع الآثار للأبوّة والبنوة.

ولذلك فإن زيدًا بعد هذه الحادثة أصبح يطلق عليه زيد بن محمد.

وقد أطلقه الرســـول وحرّره من الرقّ. وزوّجه أم أيمن مولاته، فولدت له أسامة بن زيد ثم طلقها، فزوجه الرســـول ﷺ زينب بنت جحش الأســـدي وهي ابنة عمة النبي ﷺ أميمة بنت عبد المطلب.

وحصلت حالة من عدم الانســـجام بين زيد وزوجته زينب، وكان زيد يشـــكو زوجته إلى رســـول الله ﷺ ويهدّد بتطليقها، لكنّ الرســـول ﷺ كان ينصحه بأن لا يطلّقها، وأن يمسك عليه زوجته.

والآية توضّح أن الرسول ﷺ كان يعلم ـ من قبل الله تعالى ـ بأن زيدًا في النهاية ســـيطلّق زينب، وسيتزوجها الرســـول ﷺ، وذلك لحكمة تشريعية، من أجل نقض العرف الاجتماعي السائد، الذي يقضي بأن الرجل إذا تبنّى رجلًا يصبح بمكانة ابنه، بحيث لا يستطيع أن يتزوّج مطلقته.

إن التشـــريع يريد أن ينقض ذلك العرف، إضافة إلى أن زيدًا كان عتيقًا، ورسول الله في مكانته وعظمته، فكان مســـتهجنًا في عرف الجاهلية أن يتزوج شخص بهذه المكانة طليقة عبد معتق.

لذلك أراد الله ســـبحانه وتعالى أن ينقض هذا العرف الطبقي، فيتزوّج الرسول من ابنة عمته زينب بنت جحش.

مع معرفة الرسول ﷺ بهذا الأمر، إلا أنه كان يشجّع زيدًا على ألا يطلّق زوجته، فكلما جاء زيد يتحدّث عن مشـــكلته مع زوجته كان الرســـول ﷺ ينصحه بالإبقاء عليها، وعدم تطليقها.

وهنا نزلت الآيــة الكريمة تعالج هذه القضية، يقول تعالــى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، حيث أنعم الله على زيد بنعمة الوجود والإســلام وغيرها من نعم الله التي لا تحصى، وكذلك أنعم الرســول ﷺ على زيد أن أعتقه وتبنّاه وقرّبه وربّاه.

﴿وَاتَّقِ اللهَ﴾ بالصبر على زوجتك، فالطلاق أمر غير محبَّب عند الله سبحانه.

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِــكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ﴾: فالرســول ﷺ في علمه أن زيدًا سيطلّق زينب بنت جحش، لكنّه أخفى هذا الأمر ولم يتحدّث عنه، ولم يسهّل أمر تحقيقه، بأن يترك زيدًا ينفذ رغبته في الطلاق.

﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾: ما كان رســول الله ﷺ يريد لزيد أن يطلّق زوجته بسرعة، فينفّذ أمر الله بأن يتزوّجها بعده، فقد كان هناك خشية عند الرسول ﷺ أن هذا سيثير بعض الاتهامات في الوســط الداخلي تجاهه، فيتّهم ـ مثــلًا ـ بأنه رغب في زوجة مولاه، كما تحكي هذه الفكرة بعض المرويات المدسوسة.

هذا من جهــة، ومن جهة ثانية هنــاك احتمال أن يتهم ﷺ بأنــه خالف القانون والعرف السائد اتباعًا لهواه ورغبته الشخصية.

أو يثار حوله ويعاب عليه أنه تزوّج مطلّقة مولى، وهو في مكانة عالية في قومه، وفي موضع الزعامة فيهم.

﴿وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَــاهُ﴾: أي لا ينبغي أن تهتم بهذه الإثارات، التي تكون في أوساط الناس، والنبي ﷺ كان يخشى الاتهامات حفاظًا على الرسالة.

هذه الآية لو تأمل فيها الإنسان، يتَّضح أن خشية المبلّغ والمصلح من الاتهامات التي تكون في وسط المجتمع كانت موجودة بنسبة ما في نفوس الأنبياء، فالنبي ﷺ ما كان يخشــى على نفسه شــيئًا، بأن يضرُّوه، لكن لأنه ﷺ كان يحمل رسالة فكان يخشــى أن يؤثّر اتهام الناس له علــى إتباعهم لهذه الرســالة، وعلى ثقتهم بحامل

الرسالة ومبلغها.

هذه الخشية كانت موجودة بدرجةٍ ما، لذلك فالآية تتحدّث عنها.

وفي آية أخرى تتحدّث عن الفكرة نفسها، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٧] ففي هذه الآية يتحدّث المفسرون حسب الروايات الصادرة بخصوص هذه الآية أن الرسول ﷺ كان مأمورًا أن يبيِّنَ للناس ولاية الإمام علي عليه السلام بعده، لكنه ظل لفترة متوقفًا، حتى لا يكون هناك شكوك واتهامات في أوساط ضعاف النفوس، أن الرسول ﷺ إنما عيّنه في هذا الموقع لأنه صهره، وابن عمّه، وبينه وبين الرسول ﷺ علاقة وثيقة، لذلك تأتي هذه الآية لتخاطب الرسول ﷺ بهذه اللهجة المشددّة.

المصلح بين الجرأة والانكفاء

نريد أن ننطلق من الآية الكريمة إلى هذه المسألة، التي تدور حول المصلح الذي يحمل رسالة الإصلاح والتغيير في المجتمع، إذ قد يجد في بعض الأحيان نفسه في ذات الموقف الذي تعرضه الآية، وذلك حينما يتحدّث عن فكرة أو رأي أو حكم شرعي، وبعض الناس لا يتقبّلون طرحه، بحيث يشككون في هذا المصلح، وهي مشكلة يعيشها كل المصلحين، لذلك نجد كثيرًا من المصلحين يكتمون بعض آرائهم وأفكارهم، خشية أن يكون ذلك سببًا لردود أفعال من قبل الناس.

وليس بالضرورة أنهم يخشون من أن تتضرر مصالحهم الشخصية، ولكن لأنهم يخشون أن يؤثر ذلك على تفاعل الناس معهم.

وهذا حصل كثيرًا في التاريخ الماضي والحاضر، فعدد كبير من العلماء لهم آراء يتحدّثون بها لخواصّهم، وفي الدائرة الضيّقة القريبة منهم فقط، ولا يجهرون بها أمام الناس، لأن عامّة الناس لو سمعوا منهم هذا الرأي المخالف للسائد عندهم،

فإنهم سيفقدون الثقة تجاه هذا العالم الذي طرح هذا الرأي، وفي بعض الأحيان يكون هناك صراع وتنافس داخلي، فيستفيد من هذا الموضوع بعض الأشخاص بإثارة الناس على هذا الشخص أو هذه الجهة ضمن تصفية حسابات.

لذلك ينقل الشهيد الشيخ مرتضى مطهري عن المرجع الراحل السيد البروجردي رحمه الله أنه تحدث مرة في أحد دروسه الفقهية، أمام تلامذته، وهو المرجع الأعلى عن معاناته الذاتية، في اضطراره لإخفاء بعض آرائه تقية من المجتمع قائلًا:

(ليس ثمة ما يدعو للعجب، فالتقية من أصحابنا أهم وأعلى، أنا نفسي في أوائل بلوغي مرحلة المرجعية العامة، كنت أظن أن عليّ أن أستنبط الأحكام وعلى الناس العمل بها، فما أفتي به يعمل به الناس، رأيت أن الأمر ليس كذلك)[1].

وما ذكره الشيخ المطهري عن الساحة الشيعية ذكر مثله الشيخ يوسف القرضاوي عن الساحة السنية، حيث قال في جريدة الشرق الأوسط بتاريخ (٣٠/ ١/ ٢٠٠١م): إن كثيرًا من العلماء يحملون رأيهم في صدورهم، ولا يبوحون به خشية الوقوع في الخلاف والاختلاف.

وضرب مثلًا على ذلك بقول الشيخ محمد أبو زهرة في أحد المؤتمرات: أنه عنده رأي كتمه عشرين عامًا، ويريد أن يبوح به الآن. وأضاف الشيخ القرضاوي: إنني كتمت بعض الفتاوى لسنين طويلة خشية أن يهاجمني المهاجمون، ثم بدأت أفصح عن هذه الفتاوى وأنشرها.

لذلك فإن بعض المصلحين يخشى أن يطرح موقفه، حتى لا تزايد عليه بعض الجهات في دينه ومواقفه الوطنية، أو أن تستفيد من طرحه هذا لتستثير عواطف الجمهور ضده، وبذلك أصبحت مشاعر الجمهور سلطة على الرأي الديني والفقهي.

(١) مرتضى المطهري: محاضرات في الدين والاجتماع، ص ٥٥٩.

العلماء وسلطة الجمهور

في كثير من الأحيان يكون العلماء عندهم آراء لا يبدونها، ومما يذكر في هذا المجال ما يشاع في بعض أنحاء القارّة الهندية، وخاصة في باكستان، عند جمهور الشيعة: أنه لا يجوز لغير الهاشمي أن يتزوّج من هاشمية، بل تصل إلى أن يُهدر دم من يقوم بهذا العمل. ويتحفظ العلماء ويخافون من تكذيب هذا القول وتبيين بطلانه.

وقد أُخبرت عن بعض المبلغين لما أراد أن يتوجّه إلى هذه المنطقة، أوصاه أحد العلماء بأنه إذا سُئل عن رأيه في هذه المسألة، أن يخبرهم بأن لا فتوى للمرجع في هذا الموضوع، وذلك حتّى لا يحصل ردّ فعل يؤثر على المرجع في أوساط ذلك المجتمع.

في بعض الأحيان يحاول البعض أن يبين أن التحفظ والحساسية منحصرة في مسائل العقيدة فقط، لأنها من المسائل الحسّاسة، والناس لا يتحمّلون طرحًا مخالفًا فيها، لكننا نجد الحالة نفسها في المسائل الفقهية.

فالإمام الخميني حينما أصدر فتوى حول الشطرنج وأنه جائز ما لم يصحبه قمار، ظهرت بعض الأصوات المندّدة ولم تكن هذه المسألة عقدية.

وكذلك أثيرت ضجة حينما أفتى المرجع السيد محسن الحكيم بطهارة أهل الكتاب، وهي ليست مسألة عقدية.

والبعض الآخر يبرّر الانفعال الذي قد يحدث نتيجة طرح الآراء الناقدة الإصلاحية: بأن الناس عادة لا تقبل إلا من الفقهاء، أما إذا كان المتحدث شخصًا لم يصل إلى رتبة الاجتهاد فالناس لا تقبل منه، لأن هذه المسائل لابدّ أن يبتَّ فيها الفقهاء.

وهذا التبرير غير صحيح أيضًا، فالسيد محسن الأمين ـ الذي لا يشك أحد في

فقاهته ـ صـــدرت ضدّه البيانات والتصريحات الشـــديدة لأنه تحدث عن موضوع بعض الممارسات في الشعائر الحسينية.

إذًا فالمسألة لا ترتبط بالمسائل العقدية أو الفقهية، أو أن يكون المتحدّث فقيهًا أو لم يصل للفقاهة، أو أن تكون المســألة مختصة بالموضوعات أو بالأحكام، بل إنها تأتي من حالة الممانعة للتغيير، ورفض حرية الرأي والفكر.

وللتدليل على ذلك أشـــير إلى ما كتبه الشـــيخ الدكتور الوائلي ﷺ في مذكراته «تجربتـــي مع المنبر»، كيف أنهم عندما أرادوا أن ينشـــئوا معهـــدًا ومنتدى لتجميع الخطباء، ولترشيد الخطابة المنبرية، قامت ضدّهم الأصوات في النجف وحوصروا، لدرجة أن بعضهم بقي في منزله لم يغادره، خوفًا من الناس، وخشية من الإثارة التي صارت عليهم، فهذه الحادثة لا تدور حول مســألة عقدية أو فقهية، وإنما هي مسألة أسلوبية عملية.

إن هذه القضية يواجههـــا المصلحون والعلماء، حيث إن هنـــاك آراء ينبغي أن تطـــرح، يؤمن بها هذا العالـــم أو ذلك المصلح، لكن طرحها فـــي المجتمع يُواجه بعواطف الناس، والأشـــد من ذلك أن يواجه باســـتغلال من أطراف منافســـة، تثير عواطف الجمهور ومشاعرهم، لذلك يضع المصلحون أنفسهم أمام معادلة معقّدة، هل يتجرؤون في طرحهم لآرائهم، وبالتالي يدفعون الثمن، أو يبقون منطويين على آرائهم وأفكارهم؟

والوضع يختلف من مجتمع لآخر، فالأصل أن الإنســـان إذا كان لديه رأي من المفترض أن يعبر عنـــه، وبخاصة إذا كان هذا الرأي يتوخّـــى منه صلاحًا وإظهارًا لفكرة مفيدة.

ميزة هذا العصر:

في بعض الأحيان تكون المضاعفات التي ستحصل من طرح الرأي الإصلاحي

شـــديدة الخطورة، ففي هذه الحالة قد يتردّد البعض في طرح رأيه، لكنّ ما يبدو أننا الآن نعيش عصرًا يختلف عن العصور السابقة، وذلك من ناحيتين:

الناحية الأولى: فـــي الماضي كانت حالة الجهل هي الســـائدة، فأكثر الناس لا يملكون مستوى تعليميًّا متقدّمًا، ولا يمتلكون انفتاحًا وثقافة، لذلك كانت العواطف والمشاعر هي التي تحركهم، أما الآن نعيش عصر الانفتاح والوعي والمعرفة، وهذا التغيّر في المجتمع ينبغي أن يســـتثمره المصلحون فـــي التعبير عن آرائهم، وطرح أفكارهم النقدية الإصلاحية.

الناحيـــة الثانية: في الماضـــي كان من يحمل الآراء الإصلاحية هم أشـــخاص محدودون، والأغلبية مع الرأي الســـائد، أما الآن هناك تطور في الوســـط العلمي والثقافـــي، لذلك فإن من يحملون الآراء التطويريـــة الإصلاحية ما عادوا قِلَّة، لكن المشـــكلة أنهم لا يعرف بعضهـــم بعضًا، ولا يتعاونون فيمـــا بينهم، لذلك فإن كل واحد منهم يبدو له كأنه يمثّل موقفًا ضعيفًا أمام الحالة العامّة، أما لو جهروا بآرائهم الإصلاحية للمجتمع، لأصبحت هناك شـــريحة واسعة تؤمن بهذه الأفكار والآراء وبالتالي تتغير المعادلة.

قد لا يكون التغير فوريًّا وحاســـمًا، لكن ذلك لصالـــح حرّية التعبير عن الرأي، والتغيير في بعض الآراء والأفكار.

إن هذين المتغيرين: **ســـعة رقعة الوعي الاجتماعي، وسعة شريحة حملة الآراء التطويرية** ينبغي أن يكون عامـــلًا دافعًا للمصلحين حتى يكونوا أكثر جرأة في طرح آرائهم وأفكارهم.

المطفّفون والكيل بمكيالين

يودّ كل إنســان في هذه الحياة أن يتمتع بحقوقه كاملة، وألا يُظلم أو يُعتدى على شيء من حقوقه، أو تُجرح أحاسيسه ومشاعره، وهذا أمر طبيعي، إلا أنه في المقابل ينبغي أن يتعامل مع الناس على هذا الأســاس؛ لأن الإنسان لا يعيش وحده، وإنما هو فرد في مجتمع مكون من أفراد، وكما أنه يرفض أن يُعتدى عليه وتُجرح مشاعره فللآخرين أيضا كرامة ومشاعر.

للبعض في حياتهــم ميزانان، ففيما يرتبط بهم يريــدون أن يأخذوا حقّهم دون نقص، ويطالبون الآخرين بمعاملتهم على أحســن ما يجــب، إلا أنهم لا يلتزمون بإعطاء الحقوق إلى أهلها، ولا يراعون مشاعر الآخرين وأحاسيسهم.

إن من يتصف بهذه الخصلة السيئة، والحالة المنحرفة، يُطلق عليه القرآن الكريم مصطلح (التطفيف) و(المطففين)، إشــارة إلى من يريد أن يأخذ حقوقه كاملة، في مقابل إنقاصه من حقوق الآخرين.

في القرآن الكريم ســورةٌ بهذا العنوان، تتحدث عن هذه الصفة، وتبدأ الســورة بإعلان التهديد لهــم بالهلاك والعذاب ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِيــنَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَـٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ

* لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[سورة المطففين، الآيات: ١-٦]، وكلمة المطففين جاءت من التطفيف، وأصلها من الطفّ، وهو جوانب الشيء وأطرافه، ولذلك سُمّيت كربلاء وادي الطف لوقوعها على ساحل نهر الفرات.

والطفيف في اللغة: الشيء النزر اليسير، واصطلاحًا: البخس في الكيل والوزن ونقص المكيال، وهو ألا تملأه إلى نهايته.

قيل إن سبب نزول السورة، قيام بعض تجار المدينة بالتطفيف في تجارتهم، حيث كان لبعضهم مكيالان: مكيال للشراء يكون أكبر، ومكيال للبيع يكون أصغر من ذلك.

وروى الطبرسي في مجمع البيان: إنّ رجلًا كان في المدينة يقال له: (أبو جهينة) كان له صاعان، يكيل بأحدهما، ويكتال بالآخر، فنزلت هذه الآيات[1].

ثم إن الله سبحانه وتعالى يهدّد هؤلاء المطففين، ويتوعّدهم، ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؟ والظن في الآية الكريمة يأتي إما بمعنى اليقين، حيث ورد في القرآن استعمال لفظة الظن بهذا المعنى، يقول تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٤٩]، أي إنهم متيقّنون بلقاء الله، إلا أن المعنى المصطلح للظن هو الترجيح، وقد ذهب بعض المفسرين إليه في هذه الآية الكريمة.

والنتيجة: إن مجرّد الاحتمال للقاء الله تعالى، كفيلٌ بأن يجعل الإنسان يحذر من العذاب، ويتعامل مع الآخرين بإنصاف، فضلًا عن اليقين بذلك، الذي يفترض تحققه لدى المؤمنين.

(١) الشيخ الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج١٠، ص٢٩١.

الكيل بمكيالين

والتطفيف وهو (الكيل بمكيالين) لا يقتصر على جهة أو مجال، بل له مجالات مختلفة، نقتصر على ثلاثة منها:

أولًا: المجال الاقتصادي، وهو المجال الذي عرضته السورة الكريمة، بأن يقوم الإنسان بإنقاص الوزن في حال البيع، بينما يأخذ حقه كاملًا حال الشراء. وهو لا ينحصر في الكيل والوزن فقط، فأيّ معاملة بينك وبين الآخرين، فإن إنقاص حقوق الآخرين يُطلق عليه (تطفيف).

ومما يتفرع عن المجال الاقتصادي تعاطي الإنسان مع عمله الوظيفي، فقد يكون متسيّبًا في عمله، بينما يتعامل مع موظفيه بتشدّد، ويحاسبهم على الثانية، فهذا من مصاديق التطفيف، وهو كيلٌ بمكيالين، ومشمولٌ بالتهديد الإلهي.

ثانيًا: مجال العلاقات الاجتماعية، حيث يتوقع الإنسان من الآخرين أن يحترموه ويُقدروه، ويُراعوا مقامه وحقوقه، بينما هو في المقابل لا يؤدي للآخرين حقوقهم في هذه الجوانب.

وهذا يشمل مختلف العلاقات الاجتماعية سواءً مع الأسرة، أو الجيران، وسائر العلاقات مع الناس، فتجده يتأذّى من سماع كلمة خشنة تجاهه، لكنه إذا تحدث عن أحد فإنه يختار من الكلمات أسوأها وأخشنها، أو تجده يغضب إذا سمع أن فلانًا اغتابه، ولا يمنع نفسه من استغابة الآخرين، هذا تطفيف، وكيلٌ بمكيالين في العلاقات الاجتماعية.

ثالثًا: مجال التقويم والأحكام، حينما تحكم على فعل أو تصرف بمكيالين، حيث يُقوّم البعض الأمور التي ترتبط بهم تقويمًا عاليًا، ويغضّون الطرف عن سلبياتها، بينما فيما يرتبط بالآخرين فإنهم يبخسون الناس حقوقهم، وهو خلاف الإنصاف الذي يدعو له القرآن الكريم ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [سورة الشعراء،

الآية: ١٨٣]. وهذا لونٌ آخر من ألوان التطفيف.

البعض إذا حدث شيء من جهته فإنه يدافع عنه، ويدعو للإنصاف، وعدم تضخيم الموضوع، لكن مثل ذلك التصرف لو صدر من جهة أخرى، فإنه هو الذي يأخذ الراية في التضخيم والتهويل.

وفي تجربة لقياس العدالة في التقويم والأحكام، اقتبس أحدهم مقطعًا من كتاب لكاتب معروف، ونسبه إلى عالم من العلماء ونشره عبر إحدى وسائل النشر، فاستقبله مؤيدو ذلك العالم بالثناء ووصفوا المقال بأنه من أروع ما كتب، وأنه يستحق الكتابة بماء الذهب.

ثم كشف الغطاء عن صاحب الكتابة الحقيقي، ولأصحاب ذلك العالم موقف مسبق منه، فأخذوا يشتمون الكاتب، ويصفون ما كتبه بالضعف والركاكة.

ومثله الذي يتناقض موقفه تجاه تكاليف الزواج، عندما يزوج أبنائه أو بناته، فبعض الناس يفرضون على المتقدّم للزواج من بناتهم من الشروط ما يجعلهم يستغيثون، لكنهم في الوقت نفسه، إذا خطبوا لأبنائهم، فإنهم يستنكرون وجود شروط وطلبات عند أسرة الزوجة.

أو أنه يغفر لولده أن يسيء التعامل مع زوجته، بأن يشتمها، أو يجرح مشاعرها، بينما هو يرفض أن يخطئ زوج ابنته معها، بل لعله يقيم الدنيا ولا يقعدها بسبب اشتباه أو خطأ لعلّه غير مقصود، هناك يتكلم عن احترام الزوج، وهنا يتكلم عن حقوق المرأة، وأهمية احترامها.

ينبغي للإنسان أن تكون القيم والمعايير التي يُطبّقها على الآخرين، هي ذاتها التي يُطبّقها على نفسه ومن يرتبط به، وإلا فهو يُمارس التطفيف، الذي يتوعّد الله تعالى أصحابه بالويل والهلاك والعذاب.

ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في وصيته لابنه الإمام الحسن عليه السلام: «اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا وَ لَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ وَ أَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ وَ اسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ وَ ارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ»[1].

التطفيف في السياسة الدولية

وكما أن التطفيف يتحقّق على المستوى الفردي، فإن له مظاهر على المستوى الاجتماعي والدولي، فعلى المستوى الاجتماعي قد تجد جماعة يستنكرون على الآخرين حينما يتحدثون عنهم أو ضدّهم، بينما يُعطون لأنفسهم الحقّ في الحديث عن الآخرين وبيان نقاط ضعفهم، إذا كنت لا تقبل بأن يُطال رمزك بأي كلمة، فلماذا تسمح لجماعتك أن تتطاول على رموز الآخرين؟ إن هذا من مصاديق التطفيف.

وعلى المستوى الدولي، هناك مأساة كبرى تعيشها البشرية، حيث إن الدول الكبرى تكيل بمكيالين، فعندما تكون لها مصالح ومطامع في مكانٍ ما، فإنها ترفع شعارات حقوق الإنسان، والالتزام بقرارات مجلس الأمن، والأمم المتحدة، والمواثيق الدولية، أما عندما تكون لها محاباة لجهةٍ أخرى فإنها تتغاضى عن كلّ ذلك.

وهذا ما نراه جليًّا من الفظائع والمآسي التي تحصل في غزة، من قصفٍ للمستشفيات، والمنازل، ومؤسسات تابعة للأمم المتحدة، وتستخدم قنابل فسفورية محرمة دوليًّا، وكلّ ذلك على مسمعٍ ومرأى من الدول المستكبرة، حيث لم يحصل في تاريخ البشرية فظاعات وجرائم بحجم هذه الجرائم والفظائع.

(١) نهج البلاغة. كتاب ٣١.

ومع ذلك كلّه، فلا عينٌ تطرف لـــلإدارة الأمريكية ولا البريطانية، ويعتبرون أن إســـرائيل تُدافع عن نفسها، وتقاوم الإرهاب، ويُصرّون على أن الحرب لا تقف إلا إذا رفع المظلومون راية الاستسلام.

أين صوت المؤسّسات الدولية والدول المستكبرة التي تتغنّى بالمواثيق الدولية، وشعارات حقوق الإنســـان؟! لماذا تغضّ الطرف عمّا يجري في غزّة من فظاعات مؤلمة، وكأن الضمير الإنساني قد مات في نفوس هؤلاء الحاكمين والمستكبرين!

المسؤولية الفردية واستقلال الشخصية

بعــض المبادئ يُكرّر القرآن الكريم طرحها في أكثر من مورد من آياته الكريمة، مما يكشــف أهميتها، وضرورة التأكيد عليها، ومنها مبدأ المســؤولية الفردية، وأنّ المرء مسؤول عن عمله، وأنه سيتحمّل دون غيره أعباء ونتائج عمله.

ففي خمســة موارد مختلفة يؤكّد القرآن الكريم هذا المبدأ، بتعبير واحد: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

والوزر هو الحِمْل، وهو ما يحمله المرء على ظهره.

يقول تعالى في الآية ١٦٤ من سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

ويقول تعالى في الآية ١٥ من سورة الإســراء: ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

ويقول تعالى في الآية ١٨ من سورة فاطر: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾.

ويقول تعالى في الآية ٧ من سورة الزمر: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّــهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

ويقول تعالى في الآية ٣٨ وما قبلها من سورة النجم: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

كما جاء التأكيد على نفس المبدأ بألفاظ وتعبيرات أخرى في عدد آخر من الآيات الكريمة، فلماذا التأكيد على هذا المبدأ؟

لأنّ الإنسان كثيرًا ما يغفل عن هذا المبدأ الأساس، فيقع في سلوك وتوجّهات تقوده إلى الخطأ والانحراف، في تعامله مع ربه وتعامله مع الناس.

يوم لا تنفع القرابة

قد يندفع الإنسان نحو ذنب أو معصية لله تعالى، إطاعة لجهة تطلب منه ذلك، أو تجاوبًا مع رغبة من يحبّه أو يحترمه، أو له مصلحة معه، وهنا يحتاج الإنسان لاستحضار هذا المبدأ الذي تؤكّده الآيات الكريمة، ومفاده أنّ هذا الآخر لن يتحمّل عنك، ولن يتحمّل معك يوم القيامة نتائج المعصية والذنب الذي تقوم به، فستقف للحساب وحدك أمام الله تعالى، تحمل أوزار الذنب الثقيلة على ظهرك، وتواجه العذاب والعقوبة الإلهية، ولن يبادر أحد ممن دفعك إلى المعصية لمساعدتك، ولو استغثت بهم ورجوتهم، ولو كانوا من أقرب المقربين إليك، وأعزّهم عليك، كما تقول الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [سورة فاطر، الآية: ١٨].

أبوك وأمك أو زوجتك أو أولادك أو أصدقاؤك، لا ينبغي أن يدفعك التجاوب مع أحد منهم، للانزلاق نحو المعصية والخطأ، فإنّ أحدًا منهم لن يفيدك يوم القيامة؛ لأنّ كلّ واحد منهم مشغول يومئذٍ بنفسه، ولا فرصة ولا قدرة لديه للاهتمام بغيره، يقول تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [سورة عبس، الآيات٣٣ـ٣٧].

فاحذر أن تقع في المعصية بتأثير ارتباطاتك العائلية.

تقف أمام الله فردًا

وقد ينتمي الإنسان لجماعة أو حزب أو تنظيم أو مؤسسة، أو يتبع زعيمًا دينيًّا أو سياسيًّا، وعليه أن يعلم أنّ كلّ الانتماءات يجب أن تكون تحت سقف القيم الدينية، فلا يدفعه انتماء، أو اتّباع زعامة، لتخطّي القيم والتعاليم الدينية؛ لأنّ الحساب يوم القيامة فردي وليس جماعي، مما يعني أنّ كلّ إنسان سيقف أمام منصّة القضاء الإلهي بمفرده، بعيدًا عن قومه وجماعته، يقول تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾[سورة مريم، الآية: ٩٥]، ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٩٤].

وحتى لا ينخدع أحدٌ بأيِّ وعود وهمية، من أيّ جهة تدّعي أنّها ستحميه يوم القيامة، وتغطي مخالفته ومعصيته، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[سورة العنكبوت، الآية: ١٢].

ويا خسارة من يتّبع زعامته أو جماعته اتّباعًا أعمى، ويرتكب الموبقات والمحرّمات لدعمها وتأييدها، يا خسارته حينما تتبرأ منه يوم القيامة، وتتنصّل من أعماله وموبقاته التي قام بها دفاعًا عنها، يقول تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٦٦].

إنّ هذه الصور والمشاهد التي تعرضها الآيات الكريمة، تريد ترسيخ مبدأ المسؤولية الفردية، وأن يحفظ الإنسان استقلالية شخصيته عن الوقوع تحت تأثير الآخرين، على حساب عقله وضميره والقيم الدينية التي يؤمن بها.

وكما ورد عن الإمام عليّ عليه السلام أنه قال: «لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ»[1].

(١) نهج البلاغة، حكمة ١٦٢.

لا يؤاخذ البريء بجرم غيره

في تعامل الإنسان مع الآخرين عليه أن لا يُؤاخذ أحدًا بما فعل غيره، فلا يُؤاخذ البريء بجرم المذنب، كما كان سائدًا في الجاهلية إذا اعتدى فرد من قبيلة، فإنّ كلّ أفراد قبيلته يكونون هدفًا لأخذ الثأر من قبل القبيلة الأخرى.

ومـــا يزال البعض من الناس ينطلق من هذا القانون الجاهلي، فإذا حصل له نزاع مع أحد، فإنه يتخـــذ موقف العداء والقطيعة مع ذويه وأقربائـــه وأصدقائه، وإذا لم يعجبه كلام أو موقف من شخص، يتخذ موقفًا سلبيًّا من كلّ جماعته، وهنا يأتي مبدأ ﴿وَلَا تَـــزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ بأن لا تحمّل أحدًا مســـؤولية وعبء موقف وعمل غيره.

وهذا ما تقرره القوانين العادلة، ومواثيق حقوق الإنسان، التي ترفض العقوبات الجماعية، كالذي تمارسه إســـرائيل بحق الفلسطينيين، فإذا انتفض أحدهم للدفاع عن أرضه وشعبه وحقوقه المشروعة، فإنّ إسرائيل لا تكتفي بسجنه أو قتله فقط، بل تصبّ جام غضبها على كلّ عائلتـــه، حيث تهدم دارهم، وتتخذ بحقهم الإجراءات الظالمة.

وهذا ما رأيناه في عهد صدام في العراق، حيث كان يتخذ إجراءات قاسية ظالمة ضدّ عوائل بأكملهـــا، إذا تصدّى أحد أبنائها لمواجهة طغيانـــه، فينالهم التهجير أو السجن أو القتل أو ســـائر الضغوطات المختلفة، التي تحوّل حياتهم إلى جحيم لا يطاق.

صلاح الفرد وسوء العائلة

ومن المشـــاهد التي يغيب فيها اســـتحضار هذا المبدأ القرآني ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ على صعيد العلاقات الاجتماعية، مشهد المبالغة في التحفظ والتردّد عند اختيار الزوج والزوجة، حين يكون أحد من عائلته أو عائلتها غير سويّ السيرة

والسلوك، حيث واجهتنا بعض الحالات التي يرغب فيها شاب الاقتران بفتاة يراها صالحة مناسبة له، لكن أهله يعترضون على اختياره لتلك الفتاة، ويمارسون مختلف الضغوط عليه لتركها، لا لإشكال أو خلل في ذات الفتاة، وإنّما لأنّ أحدًا من أهلها متورّط في بعض الانحرافات، فما ذنب الفتاة نفسها! وأينهم عن هذا المبدأ القرآني ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؟

وكذلك الحال في موقف بعض العوائل المتحفّظ الرافض حين يتقدم لخطبة ابنتهم شخص صالح؛ لأنّ فلانًا من عائلته غير صالح!!

صحيح أنّ هناك أحاديث وروايات تحبّذ اختيار الزوج والزوجة من العوائل الكريمة الأصل، لكن هذه النصوص تشير إلى وجود المقتضي والأرضية المهيأة للانحراف، في نفس من يتربى في عائلة تسودها أجواء الانحراف والفساد، ولا تعني حتمية حصول ذلك، فإذا تبيّن أن هذا الشخص قاوم ذلك المقتضي بموانع إرادته ووعيه، وتغلّب على احتمالات التأثر بأجواء عائلته، وثبت صلاحه، فلماذا نتحفظ عليه ونعاقبه بذنب عائلته؟!

إنّ الأطباء مثلًا يتحدثون عن أمراض الدم الوراثية، لكنهم لا يجزمون بانتقالها وراثيًّا لكل فرد من أفراد العائلة، والإجراء العقلائي هو القيام بالفحوصات اللازمة، فإذا تبيّن خلو الفرد من تلك التأثيرات المحتملة، يكون من الناحية الصحية سويًّا سالمًا.

وكذلك الحال في الجوانب النفسية والسلوكية، فلو كان في عائلة الولد أو الفتاة خلل في السلوك والأخلاق، ورأينا سيرتهما صالحة مستقيمة، فهذا يعني تجاوزهما لتلك الآثار المحتملة. وهنا لا ينبغي التوقف والتردّد في الزواج والاقتران.

بين الصفات الذاتية والصفات العائلية

ونسوق هنا شاهدًا ومثالًا مما ذكرته الروايات عن سعد بن عبد الملك الأموي،

ومعروف ما كانت عليه الأسـرة الأموية أيام حكمها وتسلّطها من فساد وانحراف، ومن عداء أهل البيت عليهم السلام، لكن الإمام محمد الباقر سمّى سعد بن عبد الملك (سعد الخيـر)، وقد ورد أنه دخل يومًا باكيًا على الإمام الباقـر، فقال له عليه السلام: «مَا يُبْكِيكَ يَا سَعْدُ؟

قَالَ: وَكَيْفَ لاَ أَبْكِي وَأَنَا مِنَ اَلشَّجَرَةِ اَلْمَلْعُونَةِ فِي اَلْقُرْآنِ.

فَقَالَ لَهُ: لَسْـتَ مِنْهُمْ، أَنْتَ أُمَوِيٌّ مِنَّا أَهْلَ اَلْبَيْتِ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اَللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ يَحْكِي عَنْ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾»[1].

على أنّ النصوص الواردة حـول اختيار الزوج والزوجة، والصفات التي ينبغي الحرص عليها فيهما، تركّز بالدرجة الأولى على الصفات الذاتية في شخصيتيهما، مـن التديّن والصلاح ومـكارم الأخلاق، أما النصوص التـي تتحدث عن صلاح العائلـة وصفاتها فهي قليلة، والمعتبر منها سـندًا أقلّ، إضافة إلى ما ذكرناه من أنّها تدعو للانتباه من التأثيرات السـلبية للعائلة على الولد أو الفتاة، فإذا تبيّن تجاوزهما لتلك التأثيرات فلا داعي للتردد والتوقف.

وخاصة في هذا العصر الـذي انخفضت فيه تأثيرات الوراثة والتربية، بسـبب عوامل التأثير العامة، وشعور الأفراد بذواتهم، وممارستهم لاستقلال الشخصية.

من اختار الضلال عليه وزره

يتمنّى المؤمن أن يقود الآخرين إلى طريق الإيمان والخير، ويسـعى لإقناعهم بالابتعاد عن الضلال والشـرّ، لكـن الآخرين لهم رأيهم وإرادتهـم، فقد يتوفقون للاستجابة له فيفوزون، ويحظى هو بالثواب العظيم لهدايتهم، وقد يرفضون دعوته جهلًا وعنادًا، أو لأيّ سـبب آخر، وفي ذلك خسارة لهم، لكنهم وحدهم يحملون وزر ضلالهم، ولا يلحق المؤمن شيء من عذابهم وشقائهم، لذلك عليه ألّا يتشنّج

(١) الشيخ المفيد: الاختصاص، ص٨٥.

ولا يتوتر نفسيًّا لموقفهم الرافض للهداية، وعليه أن يستحضر المبدأ القرآني ﴿وَلَا تَـزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، يقول تعالى: ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِـهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[سـورة الإسراء، الآية: ١٥]، ويقول تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّـهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[سورة الزمر، الآية: ٧].

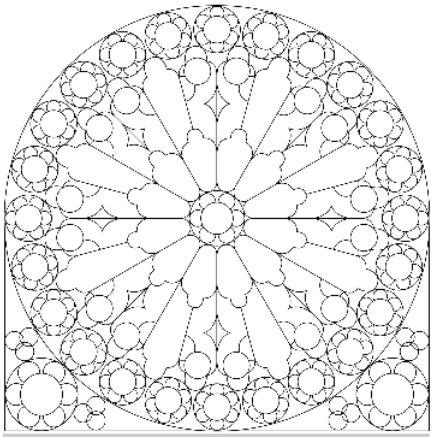

الفصل الرابع

في العلاقات الاجتماعية

إن مستوى العلاقات داخل أي مجتمع من المجتمعات ليست مسألة كمالية جانبية، بل هي عنصر أساس في تقرير وضع المجتمع، وتحديد مكانته وحركة مساره. فإذا كانت شبكة العلاقات الاجتماعية سليمة صحيحة، كان المجتمع مهيأً للتقدم والانطلاق. وعندما تسوء حالة العلاقات داخل المجتمع، فستنعكس على مجمل أوضاعه تخلفًا وانحطاطًا.

لذلك، فإن أي حركة نهوض لا يمكنها أن تغفل شأن العلاقات الاجتماعية، فهي أرضية الانطلاق، ومحفِّز الإنتاجية والتقدم.

وحينما انبثقت دعوة الإسلام في أرض الجزيرة العربية، فإنها ركزّت على إعادة صياغة العلاقات داخل المجتمع العربي، لانتشاله من حالة الصراعات القبلية، والنزاعات المصلحية، ونمط العلاقات الجاهلية المتخلفة.

وفي حديث القرآن الكريم عن عملية التحول الحضاري الإسلامي في المجتمع العربي، يتناول التغيير في شكل العلاقات الاجتماعية، كأهم إنجاز حققته الدعوة، وكان مقدمة لنجاة العرب وخلاصهم من الجاهلية والتخلف، يقول تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾[سورة آل عمران، الآية:١٠٣].

فالآية الكريمة تُذكِّر المسلمين بأهمّ نعمة أسبغها اللّه عليهم، وهي تغيير نمط علاقاتهم، من حالة التنافر والعداء، إلى مستوى الأُلفة والأخوة، فتمكنوا بذلك من تجاوز واقع السقوط والانحطاط، وأصبحوا أمة ذات رسالة وحضارة.

ويتكرر الحديث في الآية الكريمة عن تلك النعمة مرتين: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾. كما ينسب اللّه تعالى إلى نفسه إنجاز مهمة التأليف بين قلوبهم ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ لتعظيم هذه المهمة، ولأن برامج الوحي الإلهي وتوجيهاته، هي التي رفعتهم ونقلتهم إلى هذا المستوى المتقدم من الارتباط والعلاقات الإيجابية.

وكانت المؤاخاة التي عقدها رسول اللّه ﷺ بين المهاجرين والأنصار، نقطة انطلاق للمجتمع الإسلامي الجديد في المدينة المنورة بعد الهجرة، فقد جاء المهاجرون المسلمون من مكة إلى المدينة كضيوف غرباء، تخلوا عن عشائرهم وأهاليهم وأموالهم، وهاجروا في سبيل اللّه لخدمة الدين الحنيف، فاستقبلهم الأنصار (أهل المدينة) بحفاوة وترحيب، انطلاقًا من هدي الإيمان، وحب الرسول ﷺ، ولتوثيق عرى الارتباط والتماسك في هذا المجتمع الجديد، أعلن الرسول ﷺ مبدأ الأخوة الإيمانية، ثم وضع صيغة عملية تتمثل في المؤاخاة بين كل واحد من المهاجرين وآخر من الأنصار.

وحينما نقرأ الثورة الفرنسية، كطليعة للتغيير في أوروبا، نجد أن مسألة العلاقات داخل المجتمع، كانت في الصميم من اهتماماتها، ومن أولويات برامجها، ويتجلى ذلك في وثيقة حقوق الإنسان، التي أقرتها الجمعية الوطنية الفرنسية، أثناء الثورة الفرنسية، في ٢٦ أغسطس ١٧٨٩م.

ومجتمعاتنا اليوم، وهي تتطلع للنهوض والتقدم، في حاجة ماسّة للاهتمام بإصلاح شبكة علاقاتها الاجتماعية، بعدما أصابها الكثير من العوارض، مع تطورات الحياة المعاصرة.

إن سلامة العلاقات الداخلية، تنعكس إيجابًا على مختلف جوانب حياة المجتمع، فحركة المعرفة والفكر، تتقدم في ظل أجواء الحرية والتسامح، وأخلاقيات الحوار، واحترام الرأي.

والنشاط الاقتصادي يترعرع وينمو على أرضية التعاون وتظافر القوى والقدرات.

ومكانة المجتمع تتعزز في أنظار الآخرين حينما يكون أكثر تماسكًا وانسجامًا.

والحالة النفسية لأبناء المجتمع، تكون أبعد عن الأزمات والعقد والأمراض، حين تصفو العلاقات، وتتقارب النفوس.

وهكذا تكون سلامة العلاقات هي الطريق إلى مجتمع أفضل.

ومن هنا تبرز أهمية السعي، وبذل الجهد، من أجل تنمية العلاقات الاجتماعية.

حسن الظن وأثره في العلاقات الاجتماعية

يحكم الإنســان على الأشــخاص والأحداث التي تمر عليــه بحكم معيّن، إما بالإيجاب، أو بالســلب، وهو في ذلك ينطلق من إحدى حالتين: إما بالعلم، أي أن عنده من الأدلة والشــواهد مــا يثبت به رأيه. وإما بالظــن، أي إنه يبني حكمه على التخيلات، والاحتمالات التي قد تكون صحيحة أو غير صحيحة.

الأصل في الإنسان العاقل أن يبني أحكامه ومواقفه على العلم، كما يقول تعالى: ﴿وَلا تَقْــفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ حينما تريد أن تحكم على شــخص معيّن، أو أمر ما، فعليك التأكد والتثبت من صحة الأدلة والبراهين، القاضي مثلًا لا يصدر حكمًا إلا إذا توفرت لــه الأدلة والبراهين التي يدّعم بها حكمــه. والعالم الفقيه لا يعطي فتواه إلا بعد مراجعة الأدلة التي يحتاجها لاســتنباط الحكم الفقهي للمسألة. وهذا يعطينا منهجية واضحة بيّنة، لما ينبغي أن يمارســه الإنسان المسلم في كل تفاصيل وجزئيــات حياته، عندما يريد أن يحكم على شــيء معيّن، فالأحكام ينبغي أن تبنى على أسس علمية.

أما أن يحكم الإنسان على شيء بغير علم، معتمدًا على الأوهام والاحتمالات، فهو منهج خطأ، غالبًا ما يؤدي بالإنســان إلى الانحراف عن جادة الصواب، فيضر نفسه وغيره.

وقيل في تعريف الظن: (ظنّ الشـــيء ظنًا: علمه بغير يقين. والظن ـ علميًا ـ هو إدراك الذهن الشـــيء مع ترجيحه. وعرف في الفلسفة بالاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض)[1]، ومتى ما وجد الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، وزال الشـــك، تحوّل الظن إلى علم ويقين.

ولأن الظن يبقى متأرجحًا بين النفـــي والإثبات، بين الصحة وعدمها، لذا ينهى القرآن الكريم عن اتباع الظن والتعويل عليه في الحكم على الآخرين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـــوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾. ولكن ما معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾؟ هل يعني أن بعضه الآخر ليس إثمًا؟

المفســـرون هنا يقولون إن كثيرًا من الظن هنا ليســـت في مقابل قليل من الظن، فالآية هنا لا تقول خذوا فقط بعشرين بالمائة من الظن واجتنبوا الثمانين مثلًا، فهذا لا يتناسب مع توجيه الآية.

كثير من الظن، هنا تعني الظنون الســـيئة، فكلهـــا ينبغي اجتنابها، وكأن مضمون الآية الكريمة يفصح عن أن الظنون التي تســـاور الإنسان تجاه الآخرين إما أن تكون حســـنة وإما سيئة، ولكن أكثرها سيئة لذا ينبغي اجتنابها، أي اجتناب الظنون السيئة، وكلهـــا داخلة في دائرة الإثم، أما الظنون الحســـنة فلا إشـــكال فيهـــا، بل لا ينبغي اجتنابها، لأنها توطد العلاقة بالآخرين.

الإثم:

أكثر الظنون التي تخالج الإنسان تجاه الآخرين سيئة، وكل ظن سيء إثم، فماذا يعني الإثم؟

بعض العلمـــاء يرى أن الإثم هو العقوبة، ولكن الإشـــكال هنـــا؛ كيف يعاقب الإنسان على ما حصل له بغير اختيار، فالظن ليس حالة اختيارية؟

(١) الشيخ عبدالهادي الفضلي: دروس في أصول فقه الإمامية، ص٢٥٩.

لكنهم قالوا بأن العقوبة تقع مع ترتيب الأثر، فالظن بحدّ ذاته، وإن كان سيئًا، إذا لم يصاحبه أثر عملي سيئ فلا عقاب فيه، أما إذا أساء شخص ما ظنًا بآخر، فسبّه، أو ضربه، أو اعتدى عليه انطلاقًا من ظنه السيئ به، فهنا يكون مأثومًا.

وبعض العلماء أشـــاروا إلى أن الإثم هنا يعني المفسدة والسوء، وليس العقوبة، وهكذا يندفع الإشكال الذي أثير حول هذه النقطة.

الظنون السيئة:

يمكننا تقسيم الظنون السيئة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

الظن بوقوع ما هو ســـيء بدون دليل وبرهان، بل بناء على احتمالات وأوهام، فيطلق حكمًا على هذا أو ذاك بدون دليل قاطع. يضيع مني شيئ مثلًا فأتهم شخصًا لهاجس خطر ببالـــي، دون أن أثبت ذلك بدليل قاطع، وهـــذا أمر لا يجوز، فأصل التصور فيه ظلم لمن اتهمته، وترتيب الأثر عليه هو ظلم آخر.

القسم الثاني:

إســـاءة الظن من مقصد فعل هو في حدّ ذاته ليس ســـيئًا، كأن أرى إنسانًا يعمل عملًا حســـنًا إلا أنه قابل للتفسير بسوء المقصد، وبدون دليل أسيء الظن في غايته. كأن أتهم إنســـانًا يصلي بأنه يرائي، دون أن يكون عندي دليل، وكأنني شـــققت عن قلبه، أو اطلعت على نيته.

فالتشكيك في غايات الناس أمر سيء ولا يجوز، وهو ظلم وادعاء بغير علم.

القسم الثالث:

إســـاءة الظن من مقصد فعل هو في حدّ ذاته سيئًا، لكنه يحتمل التبرير المسوغ، كأن ترى شخصًا يعمل عملًا ظاهره السوء، ولكن يحتمل أن يكون له مبرر شرعي،

وبدون أن تضع هذا الاحتمال تشكك في أمره وتسيء الظن فيه.

ترى شخصًا مسلمًا يأكل في نهار شهر رمضان، وهذا بلا شك عمل محرم، لكن هناك احتمالًا أن يكون هذا الشخص مريضًا أو مسافرًا، أو له عذر ما، فلا يجوز أن تتهمه جزافًا بدون دليل.

ومن أجل أن تكون علاقتنا مع بعضنا حسنة، فلا بد أن نحمل بعضنا بعضًا على حسن الظن.

من وصايا أهل البيت:

هناك نصوص كثيرة تؤكد أهمية حسن الظن بين الناس، وتحذّر من إساءة الظن بالآخرين، وذلك عمل بأصالة الصحة، وحمل عمل المسلم على الصحة، مثال ذلك أن تذهب إلى القصاب لتشتري منه لحمًا، فهناك احتمال بأن يكون الذبح غير شرعي، لكن لا يصح أن تحمله على هذا المحمل.

جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حَرَّمَ مِنَ الْمُؤْمِنِ ثَلاثًا: دَمَهُ، وَمَالَهُ، وَأَنْ يُظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ»[1] إساءة الظن بالآخرين كالاعتداء عليهم، وسرقة أموالهم، وهتك أعراضهم، فكلها أمور منهي عنها شرعًا. إلا أن سوء الظن اعتداء معنوي، والاعتداء على دماء الناس، وسرقة أموالهم اعتداء مادي.

والأسف كل الأسف أن الاعتداء على سمعة الناس وخدش شخصياتهم أصبح وكأنه أمر طبيعي في المجتمع، وهو خطأ كبير!

وعن رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ»[2].

ويروى عن أمير المؤمنين علي عليه السلام كلمة يحذّر فيها من سوء الظن، وأن الشخص

(١) محمد ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة، حديث ٣٤٢٠.

(٢) محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، ج٤، حديث ٦٧٢٤.

الذي يحمل هذه الصفة لا يستطيع أن يصنع علاقات سليمة مع الناس: «مَنْ لَمْ يَحْسُنْ ظَنُّهُ اِسْتَوْحَشَ مِنْ كُلِّ أَحَد»[١].

وعن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «ضَعْ أَمْرَ أَخِيكَ عَلى أَحْسَنِهِ حَتّى يَأْتِيَكَ مَا يَغْلِبُكَ مِنْهُ»[٢] فأنت مطالب بتفسير أي عمل بأحسن تفسير، إلا أن تكون هناك أدلة قاطعة، أو ما يرجح الاحتمال السيئ بشكل واضح، فلا ينبغي أن يكون الإنسان ساذجًا أيضًا.

وعنه عليه السلام: «وَلَا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَخِيكَ سُوءًا وأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الخَيْرِ مَحْمِلًا»[٣] إذا سمعت كلمة من أحد وهي تحتمل السوء بنسبة أكبر من الخير، فأنت مطالب بحملها على المحمل الحسن، وإن كانت نسبة احتماله قليلة.

وروي عنه عليه السلام أنه قال ذات مرة، وهو يجيب سائلًا عن المسافة بين الحق والباطل، أنه وضع أصابعه الأربعة بين عينه وأذنه ثم قال: «مَا رَأَتْهُ عَيْنَاكَ فَهُوَ الحَقُّ، وَمَا سَمِعَتْهُ أُذُنَاكَ فَأَكْثَرُهُ بَاطِلٌ»[٤].

وعنه عليه السلام: «اطْلُبْ لأَخِيْكَ عُذْرًا فَإِنْ لَمْ تَجِدْ لَهُ عُذْرًا فَالْتَمِسْ لَهُ عُذْرًا»[٥].

ويُنقل عن أحد العلماء هذه المقولة: (لو رأيت شخصًا وبيده قدح به خمر وهو على فمه فإنك يمكن أن تحمله على أنه مجرد مضمضة أو أنه لم يعلم أنه خمر).

هكذا يربي الإسلام الإنسان على أن يكون حسن الظن بالآخرين.

وعن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «حُسْنُ الظَّنِّ راحَةُ الْقَلْبِ وَسَلامَةُ الدِّينِ»[٦].

---

(١) عيون الحكم والمواعظ، ص٤٦٥، حكمة ٨٤٦٣.
(٢) الكافي، ج٤، ص ٩٤، حديث ٣.
(٣) بحار الأنوار، ج٧٢، ص١٩٦ حديث١١.
(٤) المصدر نفسه، ج٧٢، ص١٩٦ حديث٩.
(٥) المصدر نفسه، ج٧٢، ص١٩٤ حديث٤.
(٦) غرر الحكم ودرر الكلم، ج١، ص٣٣٨.

وعن الإمـــام الصادق عليه السلام أنه قال: «حُسْـــنُ الظَّنِّ أَصْلُهُ مِنْ حُسْـــنِ إِيمَانِ المَرْءِ وسَلَامَةِ صَدْرِهِ»[1].

حسن الظن وحاجتنا إليه:

ما أحوج مجتمعاتنا إلى الأخذ بحســـن الظن، ســـواءً على المستوى الفردي أو بين الجماعات، فنحن نواجه مشكلة في العلاقة بين الجماعات، كل جماعة تسيء تفسير تصرف الجماعة الأخرى، ولعلّ تصرفًا فرديًا يصدر من أحد الأفراد فيحسب على الجماعة بأكملها، وهذا غير صحيح، من أخطأ هو من يتحمل المسؤولية.

ترى من يحكم على عمل ما بأنه حسن ويدعمه بكل قوة ما دام من قام به شخص من دائرته، ولكن متى ما قام شخص ما بنفس العمل من دائرة غير التي ينتمي إليها، فالحكم هنا يكون معاكسًا.

ينبغي لكل إنســـان مؤمن عاقل أن يتجاوز هذه الحالة، وينظر إلى الآخرين نظرة إيجابية، ولو جال في خاطره تصور خطأ على شخص ما، فعليه ألا يبنيَ عليه موقفًا قد يضر أو يســـيء به إلى الآخر، فذاك إثم وظلم نهى عنه الشـــرع القويم، ويرفضه العقل السليم.

(١) بحار الأنوار، ج٧٢، ص١٩٦، حديث١٢.

التودّد إلى الناس

حينما يمتنّ الله سبحانه وتعالى على أحدٍ من عباده بشيء، ويعده بذلك الشيء، فــلا بدّ أن يكون ذلك الشــيء عظيمًا، والآية الكريمــة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُــوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [سورة مريم، الآية: ٩٦].

تؤكّد أن اللّه ســبحانه وتعالى يعِدُ عبــاده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ويمنّ عليهم بنعمة كبيرة من نعمه، تلك النعمة هي أنه سيجعل لهم ودًّا في القلوب والنفوس. فلا بُدّ أن يكون وجود المحبة والمودة للإنسان في قلوب الآخرين شيئًا مهمًّا، ولو لم يكن شــيئًا مهمًّا لما وعد الله به صفوة عباده، ولما نسب وجود ذلك الودّ إلى ذاته سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّ الَّذِيــنَ آمَنُوا﴾، الذيــن يؤمنون بالله، ويؤمنون بالمبــادئ الدينية، والقيم الأخلاقية السامية، هؤلاء الذين يمتلكون صفة الإيمان وهي صفة عقلية نفسية؛ لأنّ الإيمان مصدره العقل، ومقرّه النفس. والذين يمتلكون إلى جانب هذه الصفة، صفة أخــرى، هي ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي حين تتحول هذه الصفة النظرية النفســية إلى ســلوك وعمل وممارســة، أما إذا بقيت مجرد عقيدة، ولم تتحول إلى ســلوك خارجي، فإنّها لا تعتبر ذات قيمة وتأثير، فالقيمة والفائدة في انعكاســها على الحياة العملية، لذلك فإنّ الله سبحانه لم يكتف بصفة الإيمان ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بل أردفها

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

صحيح أنّ الإيمان يفترض أن يدفع للعمل الصالح، لكن بعض الناس قد يكتفون بالإيمان النظري، وبالحالة العقدية، دون أن يترجم ذلك إلى عمل. الله سبحانه وتعالى يقول إنّ من يكتفي بالإيمان النظري العقدي في قلبه، ولا يلتزم معطيات هذا الإيمان، فإنّ ذلك لا يؤدي إلى نتيجة، أيّ أنّ الإيمان يجب أن يكون إلى جانبه العمل المنبثق من حالة الإيمان، هؤلاء الذين يمتلكون هاتين الصفتين سيجعل لهم الله سبحانه ودًّا، والودّ هو المحبة والمودة، أي أنّ الله سبحانه سيجعل لهم المحبّة والمودّة في قلوب الناس.

﴿سَيَجْعَلُ﴾ هذا الجعل كيف يكون؟ وللإجابة يمكننا تصور ذلك على نحوين:

النحو الأول: الجعل الغيبي: أي إنّ الله سبحانه وتعالى سيجعل القلوب منجذبة إليهم بتأثير غيبي، وهناك روايات تؤيّد هذا المعنى: ورد في حديث عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «إذا أحبَّ اللهُ العبدَ نادى جبريلَ: إن اللهَ يحبُّ فلانًا فأحبِبْه، فيُحِبُّه جبريلُ، فينادي جبريلُ في أهلِ السماءِ: إن اللهَ يحبُ فلانًا فأحبُّوه، فيُحِبُّه أهلُ السماءِ، ثم يُوضَعُ له القَبولُ في الأرضِ»[1].

والسؤال: كيف يحبّ الله عبدًا من عباده؟ إنّه جلّ وعلا لا يحبّه لمنظره أو جماله أو ماله، إنما يحبّه؛ لأنه يستحق المحبة، لصفاء قلبه، لخلوص نفسه، لسلامة سلوكه وعمله، فيحصل التأثير الغيبي الإلهي، أي: يحبّه أهل السماء، ويجعل الله سبحانه له جاذبية فتنجذب نحوه القلوب والنفوس في الأرض.

النحو الثاني: الذي يمكن أن نفهم به هذا الجعل: أنّ طبيعة الإيمان والعمل الصالح، تجعل الإنسان في موقع المحبوب عند الناس.

فالناس متى يحبّون شخصًا؟

(١) صحيح البخاري. ج٤، ص٩٥، حديث ٦٠٤٠.

يحبونه إذا رأوه صالحًا، محسـنًا، طيّبًا، فالقلوب تحبّ شخصًا كهذا. المؤمن الذي يعمل الأعمال الصالحة، طبيعة شـخصيته وسلوكه تجذب النفوس إليه، فهو مثلًا يفترض أن يتصف بالإحسـان إلى الآخرين واحترامهم، وقد ورد عن رسـول اللـه ﷺ أنه قال: «جُبِلَتِ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَـنَ إِلَيْهَا»[1]، فمن الطبيعي أن يحبّه الناس، لأنه محسـن، ولأنه يخدم الآخرين، ويحترمهم، ولا يسيء إليهم، بل يحسـن معاملتهم، إنّ سلوك الإنسان المؤمن وطبيعة شخصيته تجعله محبوبًا لدى الآخرين، حين يكون ملتزمًا أخلاق الإيمان وآدابه.

بعض الأحيان يتخـذ الإيمان في أذهاننا صورة معينة، مثـلًا نقول: إنّ المؤمن هو ذلك الذي يذهب إلى المسـجد، ويتعبّد، ويطيل في صلاته، ويصوم، ولا نفكر أنه يجب أن يكون بشوشًـا، حلو المعشـر، كريم الأخلاق والطباع، لذلك نصاب بالعجب عندما يقال إنّ المؤمن محبوب. فمثلًا هناك أناس مؤمنون ـ حسب تصورنا للإيمان ـ لكنهم غير محبوبين، حتى أقرباؤهم لا يودّونهم، لذلك نحتاج أن نصحح صورة المؤمن في أذهاننا.

هل المؤمن هـو من يصلي، ومن يذهب للمسـجد، ويقـرأ الأدعية والقرآن، ويصوم فقط؟!

هذه ليسـت الصورة الكاملة للإيمان، إنّما الصورة الكاملة تكون بإفشاء السلام وإطعام الطعام، من يكون حزنه في قلبه وبشـره في وجهه، من يحسـن إلى الناس، من لا يسـيء إليهم، فمن يلتزم الأخلاق الحميـدة يحبّه الناس، حتى لو لم يظهروا محبّتهم له، نحن نجد في سـيرة رسول الله ﷺ وفي سـيرة الأئمة الطاهرين عليهم أفضل الصلاة والسـلام، حتى أعداؤهم الذين يكيدون لهم، في أعماقهم إعجاب وانبهار بهم، لكن المصالح والصراع الدنيوي جعلهم في موقع المناوأة والعداوة!

(١) من لا يحضره الفقيه. ج٤، ص٣٨١، حديث٥٨٢٦.

الإنسان المؤمن الملتزم بضوابط الإيمان في أخلاقه وسلوكه، له محبّة في النفوس، حتى من يعاديه ظاهرًا في أعماق نفسه وقلبه لديه انشداد نحوه، ذلك أن المؤمن يهتم بكسب محبة الناس ومودتهم، ولدينا نصوص كثيرة تتحدث حول قيمة وأخلاقية التودّد إلى الناس.

معنى التودد

والتودّد يعني: طلب المودة أي أن تسعى لأن يحبّك الناس، الروايات والنصوص الدينية تطلب من الإنسان المؤمن أن يسعى لكسب قلوب الناس ومحبتهم، وإن كانت بعض هذه المفاهيم الأخلاقية السلوكية تكاد تكون مغيّبة في وعينا وأفكارنا، في الوسط الديني، نحن نعرف فضل الصلاة والزيارة والعزاء، وفضل كثير من العبادات والمستحبات، لكن هناك من المفاهيم والسلوكيات ما ترتبط بالتعامل مع الناس، والتركيز عليها في الوسط الديني قليل، وهذا يجعل الإنسان المؤمن مهتمًا ببعض العبادات الطقوسية، لكنه غير مهتم بالمعاملة مع الناس، وحسن العلاقة معهم، هذا إيمان مبتور «إيمان ببعض الكتاب» كما يقول تعالى ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[سورة البقرة، الآية: ٨٥].

لِنُلْقِ نظرة على بعض هذه النصوص، ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «رَأْسُ العَقْلِ بَعْدَ الإِيمَانِ التَّوَدُّدُ إِلَى النَّاسِ»[١]، لا شيء أهمّ بعد الإيمان بالله سبحانه من أن تسعى لكسب محبة الناس، في رأس القائمة والأولويات، أن تتصرف بشكل يحبّك ويودّك الناس.

(١) محمد بن الحسن الحر العاملي، وسائل الشيعة. ج١٦، ص٢٩٥.

وفي حديث آخر عنه ﷺ: «رَأْسُ العَقْلِ بَعْدَ الإِيمَانِ باللهِ التَّحَبُّبُ إِلَى النَّاسِ»[١] هنا دعوة إلى التحبّب إلى الناس كافة ـ لم يقل إلى المؤمنين أو المسلمين أو الأقرباء ـ إنما الناس بشكل عام، وعنه ﷺ: «التَّوَدُّدُ نِصْفُ الْعَقْلِ»[٢] أي إنّ كسب محبة الناس، يمثل ٥٠ ٪ من استخدام العقل، ومن لا يسعى لمحبة الناس نصف رأس مال عقله مجمّد. وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «أَوَّلُ العَقلِ التَّوَدُّدُ»[٣].

وجاء عن رسول الله ﷺ: «التَّوَدُّدُ نِصْفُ الدّينِ»[٤] ليس فقط نصف العقل بل نصف الدين، ولكن ما معنى نصف الدين؟ الدين له هدفان: حسن العلاقة مع الخالق، وحسن العلاقة مع المخلوقين.

فنصف الدين أن تتعامل مع الله بشكل سليم، يتمثل في عبادة الله والخضوع له.

أما النصف الثاني فهو المعاملة الطيبة مع الناس.

إن المودة تخلق وشيجة مع الآخرين تشبه الرحم والقرابة.

ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «المَودَّةُ قَرَابَةٌ مُسْتَفَادَةٌ»[٥]. أي كلما كسبت مودة أحدٍ اكتسبت قرابة جديدة، وعنه عليه السلام: «المَوَدَّةُ إِحْدَى الْقَرابَتَيْنِ»[٦]، فالقرابة إمّا عبر الرحم أو عبر المودة والمحبة، بل هناك نصوص تشير أنّ مكانة المودة أكثر من الرحم، عن أمير المؤمنين عليه السلام: «اَلْمَوَدَّةُ أَقْرَبُ نَسَبٍ»[٧]، وفي رواية أخرى «اَلْمَوَدَّةُ أَقْرَبُ رَحِمٍ»[٨].

---

(١) بحار الأنوار. ج١، ص١٣١.
(٢) من لا يحضره الفقيه. ج٤، ص٤١٦، حديث٥٩٠٤.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، ص١١٩، حكمة ٥٤٨.
(٤) بحار الأنوار. ج٧١، ص٣٩٢.
(٥) من لا يحضره الفقيه. ج٤، ص٣٨٩.
(٦) غرر الحكم ودرر الكلم، ص٦٥، حكمة ٢٠٥٣.
(٧) المصدر نفسه، ص٦٥، حكمة ٢٠٥٥.
(٨) المصدر نفسه، ص٦٥، حكمة ٢٠٥٤.

وهنـــاك روايات تقارن بين القرابة الرحمية وقرابة المودة: عن رســـول الله ﷺ: «الْقَرِيبُ مَنْ قَرَّبَتْهُ الْمَوَدَّةُ وَإِنْ بَعُدَ نَسَبُهُ، وَالْبَعِيدُ مَنْ بَعَّدَتْهُ الْمَوَدَّةُ وَإِنْ قَرُبَ نَسَبُهُ»[١].

وفي كلمة جميلة لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «كُلُّ قَرابَةٍ تَحْتاجُ إلَى مَوَدَّةٍ»[٢]، كونه قريبك: أخوك أو ابن عمك أو ابن خالك، هذا لا يكفي ما لم تكن هناك ألفة ومحبة، وفي كلمة أخرى عنه عليه السلام: «تحْتَاج الْقَرَابَة إِلَى مَوَدَّة، وَلَا تحْتَاج الْمَوَدَّة إِلَى قرَابَة»[٣]، وعنه عليه السلام: «رُبَّ أَخٍ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّكَ»[٤].

وعن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام قال: «أَنْفَعُ الكُنُوزِ مَحَبَّةُ القُلُوبِ»[٥] محبة القلوب هو أهمّ رصيد، لذلك يبذل الإنســـان ماله وجاهه وجهـــده من أجل أن ينال المحبة والمودة من الآخرين.

(١) الكافي. ج٢، ص٦٤٣.
(٢) بحار الأنوار. ج٧٥، ص٧.
(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج٢٠، ص٣٠٥، حديث ٤٨٩.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم، ص٢١٤، حكمة ٢.
(٥) المصدر نفسه، ص١١٨، حكمة ٥٢٠.

اللمز والتنابز من مساوئ الأخلاق

حتى تكون الأجواء في المجتمع الإســلامي صافية نقية، تساعد الإنسان على التآخي والتعايش مع الآخرين، فإن الإسلام يؤكد مجموعة من المبادئ الأخلاقية، التي تحفظ لكل إنسان في المجتمع مكانته واحترامه.

احترام الإنســان من قبل الآخرين يدخل على نفسه السرور، وينمِّي فيه احترام الناس، فتصبح حالة الاحترام في المجتمع متبادلة.

أما إذا أســيء لشــخص، وهذا الشــخص رد الإساءة بالإســاءة، عندها تكون الأجواء معكّرة، وتنتشــر فيها هذه السمة الســيئة. وهنا تجد دقة القرآن الكريم في ألفاظه وعباراته، حيث يقول تعالى: ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَــكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١١].

وهل يلمز الإنسان نفسه؟

نعم يلمز الإنسان نفســه بطريق غير مباشــر، فإذا لمز غيره فهو يشجع على أن يُعامل بنفس المعاملة، ويشــجع على انتشار هذه العادة في المجتمع، وبلا شك أن هذا الأسلوب سوف يستخدم معه عاجلًا أم آجلًا، من الشخص الذي أساء له أو من غيره.

الآية الكريمة تتحدث عن مفردتين من المفردات السيئة السلبية، التي تسقط حالة الاحترام بين الناس، وهما (اللمز) و (التنابز).

اللمز:

واللمز هو إعابة الشخص بمحضره، وقد يكون إشارة بالرأس أو العين أو الشفة، مع كلام خفي. وهو ممارسة سيئة، وعدوان وقح، في التعامل مع الآخرين.

أن تعيب شخصًا بوجهه، وبمحضر من الآخرين، وتنتقده بكل قسوة، وبلا مبالاة بمشاعره وأحاسيسه، وبالتالي تدفعه إلى التفكير في الانتقام، وتؤجج في نفسه غضبًا وسخطًا على من وجه إليه هذه الإساءة، وعلى المجتمع الذي كان شاهدًا صامتًا على الاعتداء عليه.

لا يخلو إنسان من العيوب ونقاط الضعف، فكل إنسان في هذه الحياة معرض لذلك، يقول الإمام الشافعي في الشعر المنسوب إليه:

لسانك لا تذكر به عورة امرئ فكلك عورات وللناس ألسن
وعينك إن أبدت إليك معايبًا فصنها وقل يا عين للناس أعينُ

وكما أن للآخر نقاط ضعف، فلك مثل الذي له ولربما أكثر، فلا تنظر وتذكر عيوب غيرك ناسيًا أن لك عيوبًا، وللناس أعينًا ينظرون بها إلى عيوبك، ولهم ألسن يتحدثون بها عنك، فتعاملك مع الناس سوف ينعكس عليك، فتعامل معهم بالحسنى.

إذا رأيت عيبًا من أحد، فحاول أن تنصحه وتوجهه على انفراد، لا أمام الناس حتى لا يظن بأنك تريد الإنقاص من شأنه وتحقيره، فذاك يؤجج نيران العداوات ويوقظ الفتنة.

التنابز:

والنبز هو إطلاق الألقاب السيئة المستهجنة على الآخرين، وهو أمر سيء لا يرتضيه أحد، والأسوأ إذا كان الأمر بين الجماعات ﴿وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي لا يلقب بعضكم بعضًا بلقب سيء يغضب ويؤجج الطرف الآخر، وفي بعض الأحيان قد يؤدي ذلك إلى نشوب حالة من القطيعة والاحتراب.

التنابز بين الأفراد:

كثيرًا ما كنا نرى كيف يطلق شخصٌ ما لقبًا على شخص آخر، بسبب شجار أو سخرية أو لأي سبب، ويبقى هذا اللقب سمة يلاحقه أينما حلّ، ولربما حتى بعد موته!

اعتاد الناس على هذا الأمر، دون أن يتنبهوا إلى آثاره السلبية على النفس وعلى المجتمع، ودون أن يدركوا أن هذا الأمر يدخل في التنابز بالألقاب، الذي ينهى عنه القرآن الكريم.

يلقبون شخصًا لعلّة فيه، كالعرج فيدعونه بالأعرج، ولا يعرف بعدها إلا بهذه التسمية، وهناك شواهد كثيرة لشخصيات مشهورة، كانت سبب تسميتهم إما لمرض أو لعاهة في المظهر كالأعرجي، والأصمعي، والجاحظ، أو لحادث معيّن كالمبّرد العالم النحوي الكبير.

وهكذا أطلقت على بعض الأشخاص ألقاب أصبحوا يعرفون بها، وصارت أسماء عوائل، يتجرع مرارتها الأبناء.

التنابز بين القبائل والجماعات:

يبدو أن هذه العادة كانت منتشرة في الجاهلية، حيث كانت بعض القبائل تحاول أن تفتعل لقبًا للقبيلة الأخرى، إذا كان بينهما تنافس أو نزاع، بمناسبة أو بدون مناسبة،

ويثيرون غضبهم بذلك اللقب، وفي بعض الأحيان كانت تقع حروب بسبب تلك الألقاب، كما هو الحال للقبيلة التي أطلق عليها لقب (أنف الناقة) وهو لقب جدهم جعفر بن قريع، وذلك أن أباه نحر جزورا، فقسم بين نسائه، فبعثت جعفرا أمه، فأتاه وقد قسم الجزور، ولم يبق إلا رأسها وعنقها فقال: شأنك به، فأدخل يده في أنفها وجعل يجرها، فلقب به، فكانوا يغضبون منه، وحصلت من جرّاء ذلك مشاكل ونزاعات، إلى أن مدحهم (الحطيئة) بقصيدة قال فيها:

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم وهل يساوى بأنف الناقة الذنب

فصاروا يتطاولون بهذا النسب[1].

هذه الحالة كانت متداولة في المجتمعات الجاهلية وبقيت آثارها، حيث لا تزال قائمة في المجتمعات التي يتحفّز بعضها للإساءة لبعض، ويطلقون على بعضهم ألفاظًا ذات إيحاءات سلبية، دينية أو سياسية أو اجتماعية، من أجل أن تبقى هذه الصفة، ويعاب بها أهلها كلما ذكروا.

هذه الحالة السلبية، كثيرًا ما تسببت في خلق نزاعات وخلافات بين أهل بلد وآخر، وجماعة وأخرى.

في الأوساط الدينية:

الإنسان المسلم المتدين عنده كتاب عظيم يعلّمه التحلي بالخلق الكريم، وعنده من التعاليم الإسلامية ما يجعل منه إنسانًا في أعلى مراتب الكمال، لو اتبعها ونفذها. فكيف يكون عذره إذا ساء خلقه مع الآخرين، والأمر الأشد ضراوة أن يكون ذلك باسم الدين والدفاع عنه!

كان يطلق مثلًا على أتباع أهل البيت لقب (الرافضة، أو الروافض) من قبل

(١) عبدالقادر بن عمر البغدادي، خزانه الأدب ولب لباب لسان العرب، ج ٣، ص ٢٧١.

مناوئيهم وذلك للإنقاص من شأنهم واستثارتهم، وقد كان ذلك يؤذيهم ويزعجهم، حتى إن الإمام جعفر بن محمد الصادق، ومن باب التخفيف عنهم ومواساتهم وتهدئتهم حتى لا يستدرجوا للنزاع والشقاق، كان يقول: «مَا لَهُمْ وَلَكُمْ، وَمَا يُرِيدُونَ مِنْكُمْ؟ وَمَا يَعِيبُونَكُمْ؟ يَقُولُونَ: اَلرَّافِضَةَ! نَعَمْ وَاَللَّهِ رَفَضْتُمُ اَلْكَذِبَ، وَاتَّبَعْتُمُ اَلْحَقَّ...»[1].

لكن يبقى هذا اللقب نبزًا للشيعة من قبل الآخرين، وهو مصداق للنهي القرآني ﴿وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾، ولكن مع الأسف لا يزال رائجًا عند بعض الأطراف، نسمعه في الإذاعات ووسائل الإعلام، ونقرأه في بعض الفتاوى والكتب الدينية!

وبعض الشيعة يطلقون على السنة لقب (النواصب) وهو إنما ينطبق على المبغضين لأهل البيت عليهم السلام، وليس على أهل السنة، وإطلاقه على السنة مصداق للتنابز بالألقاب.

وفي داخل المذهب الواحد قد تجد الأمر قائمًا، حيث تطلق فئة على فئة أخرى من نفس المذهب لقبًا تنقص به من قدرهم وتحقرهم، هؤلاء الناس أتباع فلان من الناس، وهؤلاء أتباع التوجه الكذائي.

أن تنسب جماعة إلى مرجع معيّن أو قائد لهم، أو إلى توجههم هذا لا يعيب، بل إن كل إنسان يفتخر بمن هو تابع له، ولكن أن يكون قصدك الإنقاص والتحقير فهذا لا يجوز، ولا يقبل من إنسان مؤمن، وعيب أن يسود في أوساطنا الدينية.

ينبغي أن نكف عن هذا الأمر، وأن نتنبه إلى آثاره السلبية التي تجرّ لنا الويلات.

الأثر السيئ:

هذه الحالة السلبية ينبغي مكافحتها في المجتمع، حتى يعيش الناس حالة احترام

(١) بحار الأنوار: ج٢٦، ص٣٦، حديث٦٦.

متبادل فيما بينهم، وهو أهم ما ينبغي أن يشـــعر به الإنسان، فإذا لم يحترم المجتمع أفراده فأين يجدون الاحترام حينئذ؟!

وإذا درسنا عمق المشكلة النفســـية عند الإنسان الشرقي، الذي يعيش حالة من الضعف والذلّ والهوان، ســـنجد أن السبب في ذلك أنه نشأ في ظل الهوان، وصار يواجه إذلالاً مفروضًا عليه، وبلا مبالاة!

فـــلا يخاطب باحترام في صغره، وعندما يكبر ويدخل المدرســـة يعامل بالذلّ، حيث أســـاليب التربية الخاطئة، كالضرب والإهانة والتوبيخ القاسي، كان الأب في الســـابق يذهب بابنه إلى المعلم ويوصيه: خذه لحمًا وأرجعه لي عظمًا!، أي عذبه كيف تشاء، المهم أن يتعلم!

وفـــي المجتمع يواجه الطفل هذا الأمر مع من يخالطهـــم، فكيف نتوقع منه أن يكون قوي الشـــخصية؟!، وأن يكون ذا معنويات رفيعة، وثقة عالية! بينما نجد في المجتمعات المتقدمة عكـــس ذلك تمامًا، وقبل ذلك في تعاليم الإســـلام وآدابه، حيث كان الأئمة يكنّـــون أطفالهم وينادونهم بكناهم، ويأمـــرون الناس بذلك فقد وري عـــن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِنَّا لَنُكَنِّي أَوْلَادَنَا فِي صِغَرِهِمْ مَخَافَةَ النَّبَزِ أَنْ يَلْحَقَ بِهِمْ»[1].

وجاء عن الإمام الرضا عليه السلام: «وَكَنِّهِ بِأَحْسَنِ الْكُنَى»[2].

ينشـــأ الطفل وهو يرى من حوله ينتقصون منـــه، ولا يعطونه أهمية تذكر، لذلك عندما يكبر تجده يتذمر ويتمرد، ليثبت أن له شـــخصية ورأيًـــا، ولا يقبل الإقصاء، وتلك نزعة نفســـية. وقد تكون ثورته هذه متأخرة بعد أن أخذت أساليب التربية في طفولته مأخذها منه.

(١) الكافي، ج١١، ص ٣٧١، حديث١١.
(٢) بحار الأنوار، ج ١٠٤، ص ١١٦، حديث ٤٣.

حتى تسمية الأطفال عندنا تنم عن الانتقاص من شأنهم، كما يقول أحد الكتاب والباحثين فالبعض يســـمون الطفل (عَيّل)، والبعض يقولون (وِرع)، أو (جاهل)! وكلها أسماء تقترب من نفس المضمون المشعر بالقصور والجهل والتحقير.

من المهم جدًا أن نشعر بالمســـؤولية تجاه بعضنا بعضًا، فاحترام أبناء المجتمع لبعضهم بعضًا هو تعزيز لقيمتهم في ذاتهم، بدءًا من مرحلة الطفولة، أما إذا أهان كل واحد الآخر فإن الجميع يعيش وضع الإذلال والهوان، فهذه الآيات الكريمة تنبهنا إلى هذه الحقيقة ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾.

الغيبة وتدمير العلاقات الاجتماعية

لا شـــيء أهم من أن يعيش الإنســـان في مجتمعه آمنًا على نفسه وماله وعرضه، ذلك لأن الإنسان شخصٌ وشخصية. وإذا كانت سلامته الجسمية والمالية هي قوام شخصه ووجوده المادي، فإن سلامته المعنوية، وحفظ سمعته، هي قوام شخصيته المعنوية والاجتماعية، لذلك فإن الإســـلام بقدر ما يشدد على حرمة الإنسان فيما يرتبط بجســـمه وماله، فإنه أكثر تشـــددًا بالنســـبة لما يرتبط بحرمـــة مكانته وجاهه وسمعته.

إن الإنســـان إذا كان يعيش في مجتمع يواجه فيه اعتداء جسميًا، فإنه بالتأكيد لا يحس بالأمن والاستقرار، وكذلك لو تعرض إلى اعتداء على مكاسبه المادية كنهب منزله، أو ســـلب أرضه، أو ســـرقة أمواله فلن يحس بالأمن والاســـتقرار، وكذلك الحال لو انتهكت كرامته وسمعته، بمعنى أنه يتعرض للتجريح والتشهير، فهذا أيضًا لا يحس بالأمن في ذلك المجتمع، ومجتمعات كهذه لا تجذب من يعيش فيها، ولا ترغّبهم في حبها والانتماء إليها.

المجتمعات الغربية بالرغم من أن الفلسفة السائدة فيها هي فلسفة مادية، لكنها وضعـــت قوانين تحفظ حقوق النـــاس في بعديها المادي والمعنـــوي، فكما أنه لا يســـتطيع أحدٌ أن يعتدي على مال الآخر، لأنه سيكون تحت طائلة القانون، كذلك

فإنه لا يستطيع أن يعتدي على سمعة الآخر، لأنه سوف يكون تحت طائلة القانون أيضًا، لذلك عندما ترفع دعوى على شخص ما، ويثبت بعدها أن الحق معه، فإنه يقوم برفع دعوى يطالب فيها بالتعويض، وإعادة الاعتبار عن الأذى المعنوي الذي تعرض له.

الغِيبة:

تؤكد تعاليم الإسلام على هذا الجانب بصورة كبيرة، فاحترام أموال الناس وممتلكاتهم وأعراضهم وسمعتهم على حدٍّ سواء، تقول الآية الكريمة ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٢]. نهي صريح عن الاعتداء على شخصية الآخر بالتحدث عنه بما يسيء إليه، ويشوه سمعته، وهو ما يسمى بالغيبة.

من ضروريات الدين كما يتفق على ذلك جميع المسلمين حرمة الغيبة، وأنها من كبائر الذنوب التي ورد التشديد على تركها، وتوعّد من يقوم بها ويفعلها بالنار والعذاب الشديد، فالآية الكريمة تؤكد ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي لا يمارس بعضكم هذا العدوان على الآخر، فالغيبة حرام في المجتمع المسلم، بل يمكن القول في المجتمع الإنساني بشكل عام.

ثم تأتي الآية الكريمة بمثال يوضح بشاعة الغيبة، وهي تشبيه من يغتاب غيره، بأكل لحم أخيه ميتًا، أرأيت الإنسان الذي يجلس أمام جنازة أخيه ثم يتناول منه لحمًا ويأكله! هل تحس وتشعر ببشاعة هذا المنظر؟ هكذا هو حال من يذكر غيره بسوء في ظهر الغيب، والصورة واضحة، لأن أكل لحم الميت هو اعتداء على من لا يقدر الدفاع عن نفسه، وذكر الآخرين بسوء في غير محضرهم، حيث لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، يشبه ذلك تمامًا. فالغيبة ـ باعتبار أنها مأخوذة من الغياب ـ هي التحدث عن عيوب الشخص في غيابه، وهنا لن يستطيع الدفاع عن نفسه. أي كأنها

حالــة انتهاز غياب الغير بالتحدث عنه بما يكره، دون أن يدافع عن نفســه، كانتهاز جسد الميت وأكله حيث لا يستطيع المقاومة.

الآثار السيئة للغيبة:

يعــرف العلماء والفقهاء الغيبــة بتعريفات عديدة، لعــلّ أرجحها: ذكر عيوب مستورة لإنســان غائب. أحيانًا يتجاهر الإنسان ببعض الصفات السيئة فذكره بها لا يعد غيبة، لأنه لو يراها عيبًا لما تجاهر بها.

وأحيانًا يكون للإنسان عيب وبالرغم من ممارسته له، إلا أنه لا يحب أن يظهره، ولا يحــب أن يذكره أحد به، فإذا ما أعبته بما يكره في ظهر الغيب فقد اغتبته، وهذا لا يجوز لما يترتب على ذلك من أمور:

١. إن هذا الأمر يعد عدوانًا على سمعة وشخصية من اغتبته.

٢. تعود الإنســان على هذا السلوك، فإذا ذكرت شخصًا ما بسوء، ستذكر آخر، وهكذا ســيكون الأمر مستساغًا عندك، وكما في تشــبيه الآية الكريمة، لو أكلت لحم ميت مرة، سيكون أكله مستســاغًا في غيرها من المرات، يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «لا تُعَوِّدْ نَفْسَكَ الْغيبَةَ فَإِنَّ مُعْتادَها عَظيمُ الْجُرْمِ»[1].

٣. تلويث أجواء المجتمع بما هو ســلبي، والمســاعدة على انتشاره، فعندما تتحــدث عن عيب فلان من الناس، فإن حديثك عــن عيبه يطبّع العيب في أسماع الناس، ويتجرؤون على ممارســة الغيبة، حتى تسمع عمن يغتابك، كما ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «لا تَغْتَبْ فتُغْتَب»[2].

٤. التســبب في رد فعل الآخــر، فمن يُغتب قد يصله الكلام بشــكل أو بآخر،

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، ج٢، ص٣٢٧.
(٢) بحار الأنوار، ج٧٢، ص٢٤٩، حديث١٦.

فيسعى للانتقام، أو الدفاع عن نفسه، مما يجعل المجتمع ساحة للصراع والعداوات وانتشار البغضاء.

٥. معصية الله، وحرق الحسنات بالسيئات، والتنازل عن أعمالك الحسنة لغيرك، في يوم أنت بأشد الحاجة إلى تلك الأعمال، لتثقل بها ميزان أعمالك، فقد ورد حديث عن رسول الله ﷺ يقول: «يُؤتى بِأَحَدٍ يَومَ القِيامَةِ، يُوقَفُ بَينَ يَدَي الله، يُدفَعُ إِلَيهِ كِتابُهُ فَلا يَرى حَسَناتَهُ! فَيَقُولُ: إِلهي لَيسَ هذا كِتابِي فَإِنِّي لا أرى فِيها طاعَتِي؟ فيَقالَ: إِنَّ رَبَّكَ لا يُضِلُّ ولا يَنسى، ذَهَبَ عَمَلُكَ بِاغتِيابِ النّاسِ، ثُمَّ يُؤتى بِآخَرَ وَيُدفَعُ إِلَيهِ كِتابُهُ فَيَرى فِيها طاعاتٍ كَثِيرَةٍ، فَيَقُولُ: إِلَهي ما هذا كِتابِي فَإِنِّي ما عَمِلتُ هذِهِ الطاعاتِ، فَيَقُولُ: إِنَّ فُلانًا اغتَابَكَ فَدُفِعَتْ حَسَناتُهُ إِلَيك»[1]، وهذا ما يجب أن يهوّن الأمر عند المستغاب، لأن حقه محفوظ عند الله. لذلك إذا قيل لشخص إن فلانًا من الناس قال عنك كذا وكذا، فإنه إن كان شخصًا عاديًا يغضب، ولربما عامل بالمثل، ولكنه إذا كان مؤمنًا واعيًا لا يهتم بالأمر، ولربما صفح عمن أساء إليه.

حديثهم نور

يتعجب الإنسان من تشديد النصوص الدينية على مسألة الغيبة، وهنا يدرك اهتمام الشرع بحفظ سمعة الآخرين ومكانتهم المعنوية في المجتمع، لذلك نجد روايات كثيرة عن النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام تنهى عن الغيبة وبكل شدة:

منها ما ورد عن رسول الله ﷺ في خطبة الوداع، ونحن نعلم ما لهذه الخطبة من أهمية حيث ركز فيها رسول الله ﷺ على القضايا الأساس التي تهم الأمة، قال: «أَلا إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا،

(١) آقا حسين البروجردي: جامع أحاديث الشيعة، ج١٦، ص٣٢٧، حديث٣٣.

فِي بَلَدِكُمْ هَذَا»[١] والأعراض تعني المكانة المعنوية للأشخاص.

ويروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «أَبْغَضُ اَلْخَلاَئِقِ إِلَى اَللَّهِ اَلْمُغْتَابُ»[٢].

ويروي الصحابي الجليل أبو ذر الغفار عن النبي صلى الله عليه وآله في وصية له أنه قال: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِيَّاكَ وَ اَلْغِيبَةَ، فَإِنَّ اَلْغِيبَةَ أَشَدُّ مِنَ اَلزِّنَا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اَللَّهِ وَ لِمَ ذَاكَ فِدَاكَ أَبِي وَ أُمِّي؟ قَالَ: لِأَنَّ اَلرَّجُلَ يَزْنِي فَيَتُوبُ، فَيَقْبَلُ اَللَّهُ تَوْبَتَهُ، وَ اَلْغِيبَةُ لاَ تُغْفَرُ حَتَّى يَغْفِرَهَا صَاحِبُهَا»[٣] فالغيبة جريمة من بُعدين فهي معصية لله تعالى، وعدوان على شخص ما.

وهناك روايات أخرى على هذا الصعيد منها: ما جاء في الحديث القدسي أنّ اللّه تعالى خاطب نبيّه موسى عليه السلام وقال: «مَن ماتَ تائِبًا مِنَ الغَيبَةِ فَهُوَ آخِرُ مَنْ يَدخُلِ الجَنَّةَ ومَن ماتَ مُصِرًّا عَلَيه، فَهُوَ أَوّلُ مَنْ يَدخُلُ النَّارَ»[٤].

وفي حديث آخر عن الرسول صلى الله عليه وآله أنه قال: «تَركُ الغِيبَةِ أحَبُّ إلَى اللّهِ عزَّ وَ جلَّ مِنْ عَشرَةِ آلافِ رَكعَةٍ تَطَوُّعا»[٥].

مجالس الغيبة:

ما هو واجب المؤمن عندما يحضر مجلسًا تجري فيه غيبة للآخرين؟

هناك مجالس سِمَتُها غيبة الآخرين، كأن شغلهم الشاغل تتبع عثرات الناس، ومع الأسف أنك تجد مثل هذا الأمر في بعض الأوساط الدينية، وذلك بسبب

(١) بحار الأنوار، ج٢٣، ص١٦٥، حديث ١١٨.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، ج١، ص١٩٥.
(٣) الشيخ الطوسي: الأمالي، ص٥٣٧.
(٤) ميرزا حسين النوري، مستدرك الوسائل ج٩ ص ١٢٦ حديث١٠٤٣٨.
(٥) بحار الأنوار، ج٧٢، ص٢٦١، حديث٦٦.

اختلافاتهم في الرأي، أو تضارب مصالحهم، فيقوم البعض بذكر معايب الآخرين، وكأنما غاب عن بالهم أن هذا الأمر من أعظم المحرمات.

بعض المتدينين يرى في نفسه زهوًا لأنه لا يشرب الخمر، ولا يزني، ولا يمارس أيًا من الكبائر، وعندما يرى أو يسمع عن غيره أنه ابتلى بمثل هذه المعاصي، يحمد الله أن نجاه منها، ولكنه يذكر مساوئ الآخرين ويشبعُ غيبة لهم، وما كأن هذا الأمر من الكبائر، وأنه لا يقل عن الذنوب الأخرى، بل كما يقول رسول الله ﷺ فيما روي عنه: «اَلْغِيبَةَ أَشَدُّ مِنَ اَلزِّنَا».

إذا حضرت مجلسًا كهذا فما هو واجبك؟

قد تكون منزهًا عن ممارسة الغيبة، ولكنك الآن تعرضت لاستماع الغيبة من الغير، فما يكون موقفك؟

الفقهاء يؤكدون أن استماع الغيبة إثم كقولها، إذا استمعت إلى من يستغيب شخصًا ما، وسكت على ذلك، ولم تدافع عن أخيك المؤمن، كنت شريكًا في هذه الغيبة.

ولذا يتوجب عليك أن ترد الغيبة، وألا تقبل بها، البعض يتعذر بالحياء، وهو عذر غير مقبول، إذا دعيت على شرب كأس من الخمر، فهل يكون الحياء مبررًا لك لشربه؟ وإذا ما رأيت من يأكل لحم ميت ودعاك لمشاركته، فهل يكون الحياء مبررًا لك لتشاركه، أو تسكت عنه؟

البعض إذا نهيته عن ذكر الآخرين بسوء، ودفعت الغيبة التي يلهج بها، يقول لك: إن ما أقوله صحيح! وهذا ليس مبررًا للغيبة، فالغيبة ذكر الشخص بما هو فيه، في ظهر الغيب.

جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ نَصَرَ أَخَاهُ بِظَهْرِ الْغَيْبِ نَصَرَهُ

اللّهُ فِـــي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»[١]، وعنه ﷺ قال: «إِذَا وُقِعَ فِي رَجُـــلٍ وَأَنْتَ فِي مَلأٍ، فَكُنْ لِلرَّجُلِ نَاصِرًا، وَلِلْقَوْمِ زَاجِرًا أَوْ قُمْ عَنْهُمْ»[٢]. لا ترض لنفسك أن تجلس في مجلس الغيبة، لأنه مجلس منكر.

حكى لـــي بعض الأصدقاء أنه كان في مجلس أحـــد العلماء الأجلاء، فتحدث أحد الحاضرين عن عالم من العلماء بسوء، فغضب ذلك العالم، ونهره عن مثل هذا الحديـــث، وقال له: إذا كنت تتحمل عقاب مثل هذا الأمر فأنت حر، لكنا لا نتحمل ذلك، فلا تعد إلى مثل هذا الأمر في مجلسنا. وهذا هو الموقف الصحيح.

(١) محمد ناصر الدين الألباني: صحيح الجامع الصغير وزيادته، حديث ٦٥٧٤.
(٢) كنز العمال، ج٣، ص٥٨٦.

لا يسخر قوم من قوم

التعامل مع الآخرين يتأثر بالنظرة الأولى إليهم، فإذا أقبل عليك شخص ونظرت إليه نظرة احترام وتقدير، أو كانت لك سابق علاقة طيبة معه، فإن شعورك تجاهه سيدفعك إلى حسن التعامل معه. على العكس فيما لو كنت قد أخذت عنه انطباعًا سيئًا، فإن تعاملك معه سيكون على أساس شعورك النفسي تجاهه.

العلاج يبدأ من الأساس:

الإسلام القويم، وتعاليمه السمحة، تريد أن تربي الإنسان على حسن المعاشرة والخلق مع الآخرين، فذاك أدعى لترسيخ حالة الألفة والوئام في المجتمعات البشرية، لذلك فالإسلام يسعى لعلاج هذه الحالة النفسية من الأساس، يسعى لتوجيه النظرة الأولى، والأحاسيس والمشاعر التي ستبنى عليها العلاقة بالآخرين من الأساس والقاعدة، فإذا ما قوي الأساس رسخ البنيان.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ * وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١١].

الآية الكريمة تتحدث عن مفردة من المفردات المنبثقة من الأحاسيس النفسية في العلاقة مع الآخرين وهي مفردة السخرية.

السخرية: تعني الـهُزء بالآخرين، والحالة النفسية للسخرية هي أن ينظر الإنسان إلى الآخرين نظرة دونية، نظرة احتقـــار وازدراء، وهذه النظرة تنعكس على ألفاظه معهم، وإشاراته إليهم.

والقرآن الكريم ينهى نهيًا قطعيًا عن هذه الحالة الســـيئة لما يترتب عليها من آثار عكسية.

الإنسان الســـوي ينبغي أن ينظر للآخرين نظرة احترام وتقدير، كما يحب هو أن ينظروا إليه.

النظرة الدونية:

ولكن لماذا ينظر البعض للآخرين نظرة دونية؟

الآية الكريم تجيب عن هذا التساؤل إجابة موضوعية، فهناك أحد سببين:

السبب الأول: أن يرى الشخص في نفسه الأفضلية على غيره.

هنا على الإنسان أن يتفكر في نفسه، وأن يجيب عن هذا السؤال: هل تستطيع أن تقطع بأنك أفضل من الذي تزدريه؟

قد يكون لهذا الشخص نقاط قوة لم تظهر لك، ولعله يصل في مستقبله إلى رتبة عالية ـ إن لم يكن في حاضره ـ أنت لا تصل إليها.

ثم هل يقبل الإنســـان المؤمن أن يكـــون في موقع تحدٍّ مع اللـــه تعالى؟ هناك مراتب ومنازل إلهية، ولربما نظر الإنســـان إلى شخص نظرة ازدراء واحتقار، وكان هذا الشخص عند الله عظيم القدر والمنزلة، فكيف سيبرر موقفه هذا أمام الله، وهو قد أهان واحتقر وليًّا من أوليائه؟

السبب الثاني: أن تتضخم عنده نقاط ضعف الآخرين.

وهل يستطيع شـــخص أن يقطع بأن ليس له نقاط ضعف؟ قد تنظر إلى شخص نظرة دونية بســـبب نقاط ضعف تراها فيه، ولعلّ فيك من نقاط الضعف ما هو أكثر وأفظع منه! وقد تكون نقاط ضعـــف غيرك لها ما يبررها، وكما قال دِعبل الخُزاعي (ت ٢٤٦هـ):

تَـأَنَّ وَلا تَعجَـل بِلَومِـكَ صاحِبًـا لَعَـلَّ لَـهُ عُـذرًا وَأَنـتَ تَلـومُ

النساء والسخرية:

يقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَـــاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ وهنا يُطرح سؤال: لماذا أفردت الآية شريحة النساء وخصتهن بالذكر؟!

هنـــاك أحد احتمالين: الأول، أن تكون كلمة قوم عند العرب تطلق على جماعة الرجال، وفي أشعار العرب ما يدل على ذلك، فتكون الآية بذلك قد ذكرت الرجال ثم النســـاء. فـ﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ أي لا يســـخر رجال من رجال، كما ﴿وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ﴾.

الاحتمال الثاني، أن لفظة قوم تشـــمل الرجال والنســـاء، ولكن ورد تخصيص النساء بعدها لوجود هذه الظاهرة أكثر في أوساطهن، سيما في تلك العصور، ولعلها لا تزال في بعض أوساطهن إلى عصرنا هذا.

ولكن لماذا تشيع هذه الظاهرة أكثر في الأوساط النسائية؟

بعض البحوث الاجتماعية الميدانية، تشـــير إلى أن غالب الأوســـاط النســـائية يشـــتغلن ببعضهن البعض، فتبرز حالة السخرية عندهن، ولعلّ من أسباب ذلك هو اهتمامات المرأة الاجتماعية والسياسية والفكرية المحدودة في بعض المجتمعات،

وهذا ما يؤدي إلى اهتمامهن بالجزئيات، كما هو الحال عند الرجال الذين لا تكون عندهم اهتمامات كبيرة.

السجناء مثلًا وبسبب انعزالهم عن ميادين العمل والحياة العامة، ينصرفون إلى اهتمامات هامشية كالتنافس على مكان النوم، أو الطعام، أو النقاش حول كلمة صدرت من هذا وذاك.

المجتمع النسائي سيما في بعض مجتمعاتنا العربية، غالبًا لا تكون عندهن اهتمامات كبيرة، فينصرفن إلى خلافات تافهة مع نظرائهن.

مشروع الزواج الجماعي في منطقتنا يكون للرجال فقط، وقد اقترحت على بعض اللجان أن يخصصوا حفلًا جماعيًا موحدًا للعرائس من النساء، فذكروا بأن ذلك يصعب مع المجتمع النسائي، لانشغالهن بالمقارنة بين هذه وتلك من حيث الفستان والشكل، وغيرها من الأمور، وقد يوقعنا هذا الأمر في إشكالات وحرج.

ربما يكون الأمر مضخمًا، وهو ليس لنقص ذاتي في المرأة، وإنما بسبب الظرف التي تعيش فيه، حيث لا تكون آفاق الاهتمامات العالية مفتوحة للمرأة.

وبسبب تضييق المجالات المهمة التي ترقى بالمرأة، تكون حالة السخرية عندهن أكثر من الرجال ـ حسب هذا الراي ـ، ولذلك خصصن بالذكر في الآية الكريمة.

أسباب النزول:

هناك روايات عدة يذكرها المفسرون في أسباب نزول هذه الآية الكريمة، نذكر منها:

الرواية الأولى: تقول بأنها نزلت في قوم كانوا يستهزئون بفقراء الصحابة، مثل: عمار، وخباب، وبلال، وسلمان، وصهيب، فهؤلاء كانوا موالي من غير القبائل

القرشية، وبعض أبناء القبائل القرشية كانوا يرون أنفسهم أكفأ وأفضل منهم، لذلك يسخرون منهم فنزلت هذه الآية تنهاهم عن ذلك[١].

الرواية الثانية: يُذكر بأنها نزلت في عكرمة ابن أبي جهل. وأبو جهل معروف بموقفه العدائي للإسلام وللنبي ﷺ، حتى أطلقوا عليه فرعون هذه الأمة. أما عكرمة فهو مسلم مجاهد ضد أعداء الإسلام، لكن بعض المسلمين كانوا يعيرونه بأبيه، فإذا ما أقبل عليهم قالوا: جاء ابن فرعون هذه الأمة[٢].

وهذا بالطبع فيه جرح لمشاعره، وكأنه يتحمل وزر أبيه، وهذا لا يجوز، لذلك نزلت هذه الآية.

الرواية الثالثة: تقول بأنها نزلت في بعض أزواج رسول الله ﷺ، كانت أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب، وهي من أصل يهودي، ثم أسلمت، وصارت زوجًا لرسول الله ﷺ، فكان بعض ضراتها من أمهات المؤمنين يعيرنها بأنها يهودية الأصل، فشكت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: هلا قلتي لهن إن أبي هارون، وعمي موسى، وزوجي محمد[٣]. وهناك من يذكر بأن أم المؤمنين عائشة كانت تعيرها بقصر القامة فنزلت هذه الآية[٤].

من هدي الأئمة

يُروى عن زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام رواية جميلة في سياق هذا الهدي القرآني، لعلاج هذه الحالة المرضية، يقول عليه السلام في وصيته للزهري «يا زُهرِيُّ! أما عَلَيكَ أن تَجعَلَ المُسلِمينَ مِنكَ بِمَنزِلَةِ أهلِ بَيتِكَ، فَتَجعَلَ كَبيرَهُم بِمَنزِلَةِ والِدَكَ» ولا أحد يقبل أن يهين والده، «وتَجعَلَ صَغيرَهُم بِمَنزِلَةِ وَلَدِكَ» والإنسان السوي

(١) محمد الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)، ج٤، ص٢٦١.
(٢) السيد محمد شكري الآلوسي، تفسير روح المعاني، ج٢٦، ص١٥٢.
(٣) علي بن أحمد الواحدي، أسباب نزول القرآن، ص٣٩٣.
(٤) أبو عبدالله محمد القرطبي، تفسير القرطبي، ج١٦، ص٣٢٥.

لا تسمح له نفسه بتحقير ولده، «وتَجعَلَ تِربَكَ مِنهُم بِمَنزِلَةِ أخيكَ» أي من هو في سنك.

«فَأَيُّ هؤُلاءِ تُحِبُّ أن تَظلِمَ؟ وأيُّ هؤُلاءِ تُحِبُّ أن تَدعُوَ عَلَيهِ؟ وأيُّ هؤُلاءِ تُحِبُّ أن تَهتِكَ سِترَهُ؟، وإن عَرَضَ لَكَ إبليسُ لَعَنَهُ اللّهُ بانَ لَكَ فَضلًا عَلى أحَدٍ مِن أهلِ القِبلَةِ فَانظُر إن كانَ أكبَرَ مِنكَ فَقُل : قَد سَبَقَني بِالإيمانِ وَالعَمَلِ الصّالِحِ فَهُوَ خَيرٌ مِنّي»، من عنده خبرة عملية ثلاثون سنة في مجال من المجالات لا يستوي هو ومن عنده خبرة عشر سنين مثلًا، وكذلك المؤمنون كلما تقدم بهم العمر، يفترض أنه زاد صلاحهم وعملهم الإيماني، «وإن كانَ أصغَرَ مِنكَ فَقُل : قَد سَبَقتُهُ بِالمَعاصي وَالذُّنُوبِ فَهُوَ خَيرٌ مِنّي، وإن كانَ تِربَكَ فَقُلَ : أنَا عَلى يَقينٍ مِن ذَنبي وفي شَكٍّ مِن أمرِهِ فَمالي أدَعُ يَقيني لِشَكّي؟، وإن رَأَيتَ المُسلِمينَ يُعَظِّمونَكَ و يُوَقِّرونَكَ و يُبَجِّلونَكَ فَقُل: هذا فَضلٌ أخَذوا بِهِ» تعظيم الناس لك تفضل منهم عليك، فلا ينبغي أن يصيبك الغرور والتعالي، وكما في دعاء كميل: «وَكَمْ مِنْ ثَناءٍ جَمِيلٍ لَسْتُ أَهْلًا لَهُ نَشَرْتَهُ» ثم يكمل عليه السلام: «وإن رَأَيتَ مِنهُم جَفاءً وَانقِباضًا عَنكَ فَقُل: هذا ذَنبٌ أحدَثتُهُ ؛ فَإِنَّكَ إذا فَعَلتَ ذلِكَ سَهُلَ عَلَيكَ عَيشُكَ، وكَثُرَ أصدِقاؤُكَ، وقَلَّ أعداؤُكَ»[1]، هكذا يعلمنا الإمام زين العابدين كيف نحسن الظن بالآخرين، ونحمّل أنفسنا المسؤولية، لا أن نتهم غيرنا ونُبرّأ أنفسنا.

السخرية بين الجماعات:

السخرية بين شخص وآخر أمر سيء، لكن الأسوأ منه أن تكون بين الجماعات، جماعة تسخر من جماعة، والحال هنا تكون أشنع وأفظع، لأن آثارها أشمل وأعم، لذا يركز القرآن على النهي عن هذه الحالة ﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾.

هذه الظاهرة السلبية مع الأسف تتفشى في المجتمعات المتخلفة، حيث تعتقد

(١) أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، الاحتجاج، ج٢، ص ١٥٨-١٥٩.

بعــض المجاميع أنها أفضل من المجموعات الأخرى، إما لنســب أو جاه أو مال، وهــذا أمر يحاربه الإســلام، ولو راجعنا في كتب الفقه باب النــكاح مثلًا، نرى أن الإسلام يوجه الناس أن ينظروا إلى الشخص المتقدم للزواج بذاته، وليس لأنه من القبيلة الفلانية، وإن كان النســب له دور لانعكاســه على سلوك الإنسان، ولكن إذا تجاوز الإنسان هذه الانعكاســات فلا يبقى هناك مبرر. وهذه نقطة تغيب عن ذهن الكثيرين. الحسب والنســب يكون معيارًا للتصور الأولي، فإذا ما ذكر لك شخص لا تعرفه، وقيل أنه من العائلة الفلانية المشــتهرة بالتقوى والصلاح، فســيتبادر إلى ذهنك صلاحه، بعكس ما لو كنت تعرفه بالصلاح أو الفســاد فالاحتمال هنا يتوقف ويتحول إلى يقين.

بعض الأحيان تكون الســخرية على مستوى المناطق، فتجد من يسخر من أهل هذه المنطقة أو تلك، وهذه حالة سيئة موجودة في بعض المجتمعات.

أحيانًا تكون السخرية على أساس المستوى الاقتصادي، فالأغنياء ينظرون إلى الفقراء نظــرة ازدراء واحتقار. وفي بعض الأحيان تكــون الانتماءات الاجتماعية وحتى الدينية سببًا للازدراء، وهذا من أسوأ أشكال السخرية. فتسمع كثيرًا عبارات تدل على الســخرية عندما يذكر شخص أنه ينتمي إلى المذهب الفلاني، أو الحزب الكذائي، أو تابــع للمرجعية الفلانية، كأن القائل يرى نفســه ومن معه في الدرجة الأعلى وغيرهم في الدرك الأسفل.

هذه أمور سيئة ولا ينبغي أن نقبل بها.

وقد أثبتت التجارب بأن الجماعات التي تنظر إلى نفسها نظرة نرجسية، ويرون الآخرين أقل منهم، غالبًا ما يكونون أقل فاعلية وعملًا ونشاطًا، حيث يعيشون على حرير الأمجاد الســابقة. وهذه الظاهرة، بالإضافة إلى مقتها من قبل الله عز وجل، تجعل أصحابها أمام موقف محرج في ساعة الجد، سيرون أن الآخرين هم الأكفأ،

أما هم فليس لهم إلا أمجاد الماضي، وكما يقول الشاعر:

أَلْهَـى بَنِـي تَغْلِـبٍ عَـنْ كُلِّ مَكْرُمَـةٍ قَصِيـدَةٌ قَالَهَـا عَمْـرُو بْـنُ كُلْثُـومِ

نأمل أن تتجــاوز مجتمعاتنا هذه الظواهر الســيئة، وأن نتحلى بأخلاق القرآن، وأخلاق رسول الله وآل بيته الطاهرين.

التجسس وهتك أسرار الآخرين

من أجل بناء علاقات اجتماعية يكون أساسها الألفة والانسجام بين الناس، لا بد من بناء قاعدة أخلاقية صلبة، تحفظ الاحترام المتبادل بين أبناء المجتمع، وتحمي حقوق الأفراد والجماعات من أي إساءة وعدوان.

تقول الآية الكريمة: ﴿وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٢]. وهو نهي صريح واضح عن التجسس.

والتجسس هو البحث بوسيلة خفية، وهو مشتق من الجس، ومن يقوم بهذا العمل يطلق عليه جاسوس. أي إن مهمة الجاسوس أن يبحث عن الأخبار الخاصة للآخرين.

إن كل إنسان له كيانه الخاص، له آراؤه الخاصة، وأموره التي تختص به، ولا يحب أن يطلع عليها أحد، فلا يحق لأحد أن يهتك عليه حرمته، سعيًا وراء معرفة أسراره، وما يريد إخفاءه، هذا ما تنهى عنه الآية الكريمة.

كتمان الأسرار لماذا؟

إنما يتقصد الإنسان إخفاء أشياء وجوانب من حياته لأحد الأسباب التالية:

١. إما لأنهـــا تمثل نقاط ضعف، ولا أحد يرغب في اطلاع الآخرين على نقاط ضعفه.

٢. وقد تكون نقاط قوة، لكن يخشى أن يطلع عليها أحد فيفسدها أو يضرها. قد يفكر في مشروع اقتصادي، وإذا ما أذاعه أو أُذيع من قبل غيره، أُخذت فكرته وسبقه للعمل بها غيره، وكذلك الحال في المجال السياسي، والاجتماعي، أو أي مجال آخر، وهناك نصوص دينية تشـــجع الإنسان على كتمان أموره الخاصة في بعض الحالات.

٣. وقد يرى الإنسان في إخفاء أموره الخاصة راحة له، كعلاقاته مع زوجته، أو مـــع أولاده، تمامًا كمظهره أمام الناس، فهو يظهر أمامهم بكامل زينته، لكنه في بيته يتخفف من كثير من ملابسه. وهذا حق مشروع لكل إنسان.

التنقيب عن الأسرار.. لماذا؟

قد يسعى الإنسان بوســـائل البحث الخفية، لمعرفة أسرار وخواص شخص ما، من باب التطفل والفضول، وهي عادة سيئة.

وكذلك التلصص على الآراء والأفكار، بأن يســـعى لمعرفة فلان من الناس في مـــاذا يفكر؟ وما رأيه في القضية الفلانية؟ مـــن أجل تصنيفه من أي توجّه ليتخذ منه موقفًا. وقد ورد رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ»[1].

والتفتيـــش في نيات الناس لا يجوز، وهو يجر إلى عـــداوات، كما يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لاَ تُفَتِّشِ النَّاسَ عَنْ أَدْيَانِهِمْ فَتَبْقَى بِلاَ صَدِيقٍ»[2].

وقد يكون السبب وراء السعي لمعرفة خاصّيات الآخرين هو رصد نقاط ضعفهم

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، حديث ٤١١٦.
(٢) تحف العقول، ص ٣٦٩.

وعيوبهم، من أجل الإضرار بهم، وهو من أشد أنواع التجسّس حرمة.

وسائل التجسّس

مع تطور العلم تتطور وسائل التجسس، وقد أصبحت في متناول الجميع، وأصبحت مصدر أزمات.

ذات مرة كنت أناقش قضية اجتماعية بين زوجين للإصلاح، الزوجة كانت تقول بأن عندها شريط تسجيل يدين زوجها، والزوج كذلك يدعي تسجيلها وإدانتها، كل واحد منهما عمل مخبرًا على الآخر! وهذا من أسوء العلاقات الزوجية، علاقة تبدأ بسوء الظن، وتنزلق إلى التجسس، وهذا حرام شرعًا.

لا يحق لأحد كائنًا من كان أن يتجسس على غيره، لا الأب على أولاده البالغين الراشدين، ولا الزوج على زوجته أو العكس، قد يستثنى جانب التربية والاصلاح، لكن هناك تحذيرًا فقد يؤدي الشك واستخدام الوسائل الملتوية إلى نتائج عكسية، وردود فعل سيئة.

الجوال الذي هو في أيدي حتى صغار السن، فيه آلة تسجيل سمعية ومرئية، لكن استخدام هذه الوسائل من أجل إدانة الآخرين ونشر نقاط ضعفهم وعيوبهم لا يجوز. كل إنسان له الحق في إخفاء ما يريد إخفاءه، وواجبك الشرعي أن تحترم هذا القرار.

من هدي الرسالة

نصوص كثيرة وردت عن رسول الله ﷺ وأهل بيته الطاهرين تنهى عن التجسس، وتؤكد حرمة الناس، وفظاعة التعدي عليها، ورد عن رسول الله ﷺ قوله: «لَا تَتَّبِعُوا عَثَرَاتِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَثَرَاتِ الْمُسْلِمِينَ، تَتَبَّعَ اللهُ عَثْرَتَهُ؛ وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ

عَثْرَتَهُ يَفْضَحْهُ»[١].

تتبعي لنقاط ضعف الآخرين، وتتبع الآخرين لنقاط ضعفي، يؤدي إلى تفشي هذا السلوك السيئ، والله تعالى قد يسلط على الجاسوس من يفضح عوراته، ونقاط ضعفه، كما فعل بغيره، وفي ذلك رادع له ولغيره.

في بعض الأحيان قد يكون عندك صديق، وبحكم هذه العلاقة يطلعك على بعض أسراره وخصائصه، لكن البعض يسيء استخدام هذه الثقة، ويفتح له سجلات لحفظ هذه الأسرار، حتى إذا ما نشبت بينه وبين صديقه عداوة، فتح سجله السري، وأفشى ما فيه. وهذا من أقبح الممارسات، ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ إِلَى الْكُفْرِ أَنْ يُوَاخِيَ الرَّجُلَ عَلَى الدِّينِ، فَيُحْصِيَ عَلَيْهِ عَثَرَاتِهِ وَزَلاَّتِهِ لِيُعَنِّفَهُ بِهَا يَوْمًا مَا»[٢].

وعن عبدالله بن سنان قال: قلت للإمام جعفر الصادق عليه السلام: «عَوْرَةُ الْمُؤْمِنِ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَرَامٌ؟

قَالَ: «نَعَمْ».

قُلْتُ: تَعْنِي سُفْلَيْهِ؟ قَالَ: «لَيْسَ حَيْثُ تَذْهَبُ، إِنَّمَا هِيَ إِذَاعَةُ سِرِّهِ»[٣]

وفي رواية عن الإمام علي عليه السلام: «تَتَبَّعُ العَيُوبِ مِنْ أَقبَحِ العُيُوبِ وَشَرِّ السَّيِّئاتِ»[٤]. وعنه عليه السلام: «مَنْ بَحَثَ عَنْ أَسرارِ غَيرِهِ أَظهَرَ اللَّهُ أَسرارَهُ»[٥].

ومن الأساليب السيئة في هذا المجال أن ترى شخصين يتحادثان، ولا يريدان

(١) الكافي، ج٤، ص٧٩، حديث٤.
(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص٧٧، حديث١.
(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص٨٦، حديث٢.
(٤) غرر الحكم و درر الكلم، ص٣٢٥.
(٥) المصدر نفسه، ص ٦٣٨.

أن يسمع أحد حديثهما، فتوجّه سمعك لتسمع ما يهمسون به. إنك كما تحب أن تُحترم أسرارك، فعليك باحترام أسرار غيرك، جاء عن رسول الله ﷺ: «مَنِ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ مَلأ اللَّهُ مَسَامِعَهُ مِنَ الآنُكِ»[1].

استثناءات في حرمة التجسس

النصوص السابقة وغيرها كثير تؤكد على حرمة الناس، واحترام أمورهم الخاصة، لكن السؤال هنا: هل التجسس بمطلقه حرام؟

هناك استثناءات لحرمة التجسس وأبرزها:

١. **تجسس الدولة على موظفيها في مجال عملهم**: من حق الدولة بل من واجبها أن تراقب أداء الموظفين لأعمالهم، كديوان المراقبة مثلًا وهذا أمر مشروع، وكان رسول الله ﷺ عندما يبعث جيشًا يعيّن عليه أميرًا، ويعيّن مراقبًا يتتبع أخبار هذا الأمير، وطريقة إدارته، ويوافي رسول الله ﷺ بالخبر. أمير المؤمنين علي عليه السلام كذلك كان يأمر مالك الأشتر أن يراقب أداء الموظفين ويتجسس عليهم في مجال أدائهم لوظيفتهم، شريطة ألا يتعدى ذلك إلى الأمور الخاصة.

٢. **التجسس على الأعداء**: في أي عصر من العصور لا بدّ أن يكون لأي دولة جهاز رقابي، وظيفته متابعة ما يحاك للأمة من مؤامرات من قبل الأعداء، سواء العدو الداخلي أو الخارجي.

ومن الخطأ أن تتعامل الأمة مع الآخرين ببساطة وسذاجة، فذلك يعرضّ أمنها للخطر.

٣. **التجسس على الأشرار ومن يسيئون لأمن الناس**: إذا علمت الدولة أن هناك لصوصًا وعصابات تُفسد وتعتدي على أمن الناس وأعراضهم، هنا يجب

(١) الشيخ الصدوق: الخصال، ص١٠٩، حديث٧٧.

على الدولة أن تسعى لكشف هذه العصابات عبر أجهزة متخصصة، بحيث لا تنتهك فيه الخصوصيات الشخصية إلا بمقدار الحاجة.

والمقصود بالأعداء هنا هم من يريدون السوء بالناس والوطن، دون التدخل في الشؤون الشخصية والفكرية، وهناك نصوص كثيرة مضمونها أن على الوالي أن يحفظ أسرار الناس ولا يتطلب معايبهم، في عهد أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر: «وَلْيَكُنْ أَبْعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ، وَأَشْنَأَهُمْ عِنْدَكَ، أَطْلَبُهُمْ لِمَعَائِبِ النَّاسِ؛ فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوبًا، الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا، فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ، وَاللَّهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ، فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ يَسْتُرِ اللَّهُ مِنْكَ مَا تُحِبُّ سَتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ»[1]. وهذا يعني أن ليس من حق الدولة التجسس على المعايب الشخصية. إنسان يمارس ذنبًا بينه وبين نفسه، لا يتعدى به على حق الغير، فليس من حق الدولة مراقبته، ولا أي جهة من الجهات.

وقد كتب الفقهاء بحوثًا حول هذه الأمور وخاصة في هذه السنوات بعد أن وصل الإسلاميون إلى مناصب في السلطة، أصبحوا معنيين بدراسة موضوع الاستخبارات من قبل الدولة، ما يجوز منه وما لا يجوز.

فقد كتب في هذا المجال باستفاضة الفقيه الشيخ حسين علي المنتظري في كتابه (دراسات في ولاية الفقيه)، وكذلك الفقيه الشيخ جعفر السبحاني في كتابه (معالم الحكومة الإسلامية)، وقد أشار إلى هذا الموضوع المرجع الراحل السيد محمد الشيرازي في كتبه عن الدولة الإسلامية وسياستها.

وقد قرر كل أولئك أن التجسس على أسرار الناس في أصله حرام، ولكن ما يستلزمه حفظ النظام، وحفظ مصلحة الدين والمجتمع والأمة، فهو جائز ضمن الضوابط الشرعية.

---

(١) نهج البلاغة، كتاب رقم ٥٣، كَتَبَهُ لِلْأَشْتَرِ النَّخَعي.

الصراعات الداخلية في المجتمع

مجتمع المؤمنين مجتمع بشـــري، والإيمان بالله تعالى وبالدين لا يُبدّل طبيعة الإنســـان، وإنما يُشذّبها ويُرشّـــدها، فإن الإنسان هو الإنســـان بغرائزه وميوله. قد يتصور البعض أن المؤمنين لا يقـــع بينهم صراعٌ ولا نزاع، وهذه نظرةٌ مثالية تصلح طموحًا وتطلعًا، لكنها لا تتحقق على أرض الواقع، فما داموا بشرًا فإنه من الممكن أن تحدث بينهم صراعات ونزاعات.

دوافع الصراعات

دوافع الصراعات والنزاعات في المجتمع الإيماني هي نفسها في المجتمعات الأخرى، وغالبًا ما تصدر من أحد باعثين:

الأول: الاختلاف المصلحي، فحينما تتضارب المصالح يحصل الصراع، سواءً كانت المصالح مادية، أو وجاهية، أو سياسية.

الثانـــي: الاختلاف في الآراء والتوجهات، إذ إن تعـــدد الآراء والانتماءات، قد يكون سببًا للصراع والنزاع في مجتمع المؤمنين، كما في سائر المجتمعات.

كتب التفاســـير حينما تتحدث عن المورد الذي نزلت فيه الآيتان الكريمتان من ســـورة الحجرات، ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُـــوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ

إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة الحجرات: الآيتان ٩-١٠].

تنقل روايات عن نزاع حصل بين مجموعتين من قبيلتي الأوس والخزرج، في عهد رسول الله ﷺ، وهما قبيلتان في المدينة المنورة، كانت بينهما حروب تاريخية، ولما جاء الإسلام حصل ببركته وئامٌ بينهما، لكن هذا الوئام لا يعني أن كل آثار الفترة الماضية قد انتهت، وتُشير الروايات أن أسباب الصراعات التي تحصل بين القبيلتين بين فينةٍ وأخرى أغلبها كانت تافهة، والأشخاص الذين يبدؤون النزاع من هذه القبيلة أو تلك هم غالبًا من ذوي الأغراض، وقد استخدمت في هذا الصراع الذي نزلت الآيتان بسببه بعض مقدمات العنف كسعف النخيل والأحذية.

ضوابط وحدود

النزاعات والصراعات حين تحصل في مجتمع المؤمنين، يجب أن تواجهها ضوابط وحدود من أهمها:

أولًا: التأكيد على الالتزام بالأخلاق والحدود الشرعية.

ثانيًا: أن يتحمل المجتمع مسؤوليته تجاه النزاع الذي يحصل في ساحته.

فموقف التفرج على الصراع خطأ، وعلى المؤمنين تحمل المسؤولية.

والله تعالى في الآيات الكريمة، يُوجّه أمرًا لجميع المؤمنين بأن يتخذوا الموقف الصائب تجاه الصراع الذي يحصل في ساحتهم، ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾.

والاقتتال في الاصطلاح يعني الحرب بالسيف والأسلحة المختلفة، لكن هذا هو الحد الأعلى، وأي نزاع يُمكن أن يُطلق عليه اقتتال، والآية تُشير إلى ذلك. وعادةً

أي نزاع إذا لم يُعالج يُرشّـح للتصاعد، لذلك تؤكد الآية الكريمة ضرورة المبادرة لمعالجة الصراع: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾.

ويُشـير أحد المفسـرين إلى اختلاف الضمائـر في الآية الكريمـة، ففي بداية الآية التعبير بصيغة التثنيـة: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ﴾، ثم انتقل إلى الجمع: ﴿مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾، وعاد إلى التثنية: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾، لأن النزاع غالبًا ما يبدأ بين شخصين أو مجموعتين، لكنه إذا تصاعد تتوسع دائرة المشاركين في الصراع لتشمل الجميع!

وأمـر الله تعالى بالإصلاح دليل على وجوب ذلـك، وأنه على المؤمنين أن لا يقفوا موقف المتفرج على الصراعات التي تحصل في ساحتهم.

المسؤولية تجاه البغي والعدوان

ثم يقول تعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ﴾، وهذه مسـألة مهمة، ففي النزاعات والصراعات غالبًا ما يكون هناك تجاوز من فئةٍ على أخرى، ومجتمع المؤمنين عليه مسؤوليتان:

المسؤولية الأولى: الدعوة إلى الصلح:

هناك نصوص وأحاديث كثيرة حول إصـلاح ذات البين، يقول تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١]، ويقول تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [سـورة النسـاء: الآية ١١٤]. وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ، وَالصَّلاةِ، وَالصَّدَقَةِ؟ قَالُوا: بَلَى قَالَ: صَلاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ»[1].

وفي حديث آخر عنه ﷺ أنـه قال لأبي أيوب الأنصاري: «أَلا أَدُلُّكَ عَلَى صَدَقَةٍ

(١) محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، حديث ٢٥٠٩.

يُحِبُّهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؟ تُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا تَبَاغَضُوا، وَتَفَاسَدُوا»[١].

فالإسلام يأمرنا بإصلاح ذات البين، وهو واجبٌ كفائي إذا قام به وحققه البعض سقط عن الكل، وإلا فالجميع آثمون.

وإصلاح ذات البين يعني السعي على مختلف المستويات والصُّعُد، على المستوى العائلي، وعلى المستوى الاجتماعي.

وموقف التفرج غير صحيح، لأن الإنسان المؤمن مطلوبٌ منه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأي معروف أفضل من الوئام والوحدة؟!، وأي منكرٍ أسوأ من الخصومة والنزاع؟!

كما أن النزاع والصراع يضرّ بالمجتمع كله، وليس المقصود بذلك وجود التنوع والاختلاف في الرأي والموقف، وإنما تحوله إلى نزاع وصراع يهدد أمن المجتمع واستقراره.

لذلك ينبغي للمجتمع أن ينتج سعيًا وجهدًا لأداء واجب الإصلاح، وذلك يحتاج إلى إنتاج ثقافة واعية، تدفع باتجاه الإصلاح والوئام، ويحتاج إلى تظافر جهود المصلحين، أما ما يقوم به البعض من تذمرٍ في المجالس بسبب حدوث بعض النزاعات في المجتمع، أو بين الشخصيات البارزة، فهذا لا يُسهم في حل المشكلة إن لم يُعقّدها أكثر. فعلى كل شخص واع أن يُطالب نفسه بدور تجاه ما يحصل في المجتمع من نزاع وصراع.

المسؤولية الثانية: إدانة البغي ومواجهة الاعتداء

حينما يكون هناك عدوان من فئة على أخرى، فأبناء المجتمع لا يصح لهم أن يكونوا محايدين، بل يجب أن يكون هناك موقف ضدَّ الجهة المعتدية، يقول تعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ﴾، أما

(١) الحافظ المنذري، صحيح الترغيب والترهيب، حديث ٢٨٢٠.

موقف الحياد فهو لا يصح، وذلك لأمرين:

الأول: موقف الحيـــاد يُعتبر نوعًا من الخذلان للطـــرف المظلوم. وقد وردت نصوص عن لـــزوم إعانة المظلوم، يقـــول أمير المؤمنين علي بـــن أبي طالب عليه السلام: «أَحْسَنُ الْعَدْلِ نُصْرَةُ الْمَظْلُوم»[١]، وقال عليه السلام في وصيته الأخيرة لولديه الحسنين عليهما السلام: «كُونَا لِلظَّالِمِ خَصْمًا، وَلِلْمَظْلُومِ عَوْنًا»[٢].

والإمام زين العابدين عليه السلام في دعاء مكارم الأخلاق، يعتبر عدم مساعدة المظلوم ذنبًا يستغفر الله تعالى ويعتذر إليه منه، يقول عليه السلام: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِنْ مَظْلُومٍ ظُلِمَ بِحَضْرَتِي فَلَمْ أَنْصُرْهُ»[٣].

فلا يصح للمجتمع أن يتفرج حينما يكون هناك اعتداءٌ من فئةٍ على أخرى.

الثاني: حينما يُسكت عن الظلم فإنه يتفشّى وينتشر.

لذلك يجب أن يكون هناك موقف تجاه الطرف المعتدي، فالاختلاف في الرأي مشروع، لكن الاعتداء ظلم ولا يصح السكوت عنه.

الاعتداءات المعنوية

وليس هناك فرق بين أن يكون العدوان ماديًا أو معنويًا، فوجوب رفض العدوان يشمل الجانبين.

كثير من الناس يســـكتون أمام الاعتداءات المعنويـــة من هذا الطرف على ذاك، وهذا لا يصح شـــرعًا. فحينما يكون حديث على أي فئةٍ أو شخصيةٍ في المجتمع، فعلى من يستمع إلى ذلك الحديث أن يُشخِّص الموقف، فإذا كان الحديث في إطار

(١) غرر الحكم و درر الكلم، ص١٩٢.
(٢) نهج البلاغة، ومن وصية له عليه السلام للحسن والحسين عليهما السلام لما ضربه ابن ملجم.
(٣) الصحيفة السجادية، دعاء ٣٨.

توضيح نقاط الاختلاف في الرأي، ووجهات النظر بين الأطراف، أو الشـخصيات المختلفة في المجتمع، فهذا بحث ونقاش علمي، وصراع ثقافي مقبول، ولكن إذا كان في الحديث اعتداء وإسقاط للفئة الأخرى، أو تشكيك في دينها، أو اعتداء على أعراضها، فهنا لا يصح السكوت وإنما ينبغي أن يكون هناك رفض واعتراض.

فعلى المؤمنين أن يكون لهم موقف واضح تجاه أي اعتداء، بمختلف الوسائل والطرق: كاللسان والقلم، لأن الجهة المعتدية إذا رأت أن هناك رفضًا من المجتمع لممارساتها، فإن أقل نتيجة مرجوة هي وضع حد لمثل هذه الممارسات.

من المؤسـف أن بعض الجهات تلقى تشـجيعًا من بعض الدائرين في فلكها، فتظن أن هذا يُعبّر عن رأي المجتمع، وقد يكون أكثرية المجتمع غير راضين، لكنها أكثرية صامتة، فعلى الأكثرية الصامتة أن تخـرج من صمتها، لتدين وترفض البغي والعدوان على الأطراف الأخرى.

وإذا لم ترفض فئـةً ما البغي والعدوان على الفئات الأخرى، فلتنتظر دورها من العدوان والبغي عليها، كما يحدث ذلك في أمثال هذه الحالات.

فينبغي أن تُؤسـس حالة اجتماعية لإدانة ورفـض البغي والعدوان، حتى تكون هناك حصانة للمجتمع ككل من الإصابة بهذه الآفة.

وتختم الآيات الكريمـة بالتأكيد على أخوة المؤمنين: ﴿إِنَّمَـا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُـمْ تُرْحَمُونَ﴾، والمؤمنون تعني جميع من آمن بالله تعالى ورسـوله واليوم الآخر فهم أخوة، ونهج الإصلاح ينبغي أن يسـود بينهم جميعًا.

معالجة الأزمات واطفاء الحرائق

تأخذ النزاعات الاجتماعية غالبًا طابع التمدّد، وتهدّد بالإضرار بالدوائر الأبعد عن محيطها الخاصّ. لذلك يحثّ الإســلام على تحمّل أقصى درجات المسؤولية حيال مختلف النزاعات الفردية والمجتمعية، ويرفض رفضًا قاطعًا الوقوف موقف المتفرج منها، ومردّ ذلك إلى أنّ أيّ مشــكلة أو نزاع يأخذ مكانه في المجتمع، فإنه لــن يبقى محصورًا في دائرته الخاصة، وإنما ينعكس ســلبًا علــى المجتمع برمّته، ويتمدّد ضرره إلى حدود أبعد مما يُتصور.

إنّ المجتمع الرشــيد هو الــذي يحاصر مشــاكله فور اندلاعها، ويشــرع في معالجتها. بخلاف ما إذا جرى الســكوت عن المشاكل، التي قد تبدو صغيرة تافهة في بدايتها، إلّا أنّها ســرعان ما تتضخم وتتوسّع، عندما لا تجد من يسعى في حلّها منذ البداية. شــأن ذلك شــأن الحرائق، التي متى ما اندلعت في مكان ما، فإنّ على الجميع المبادرة لإخمادها فورًا، تفاديًــا لتمدّدها إلى الأماكن المجاورة، وإلّا فإنّ ثمن إهمالها سيكون باهظًا.

من هنا، لا بُدّ وأن تكون في كلّ مجتمع ما يمكن أن نسمّيها فرق إطفاء الحرائق الاجتماعية.

الإصلاح بين الزوجين

لقد تناول القرآن الكريم مسألة الخلاف بين الزوجين باعتباره نموذجًا مصغّرًا، ينبغي أنْ تظهر معه المسؤولية الاجتماعية، باتجاه وضع حدٍّ للخلاف بينهما. ذلك أنّ الشرع يوجب على المجتمع أن يلعب دورًا في معالجة الخلافات العائلية، قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [سورة النساء، الآية: ٣٥]، وقد ذهب جمع من العلماء إلى أنّ الآية الكريمة تأخذ طابع الوجوب، أي إنّها توجب على المجتمع التدخل لمعالجة الخلاف بين الزوجين، ورفض موقف عدم المبالاة منه، ومردّ ذلك إلى الآثار السلبية التي يمكن أن يتركها هذا الخلاف، فالزوجان عضوان في المجتمع، والخلاف بينهما ينعكس سلبًا على نفسيتيهما وسلوكهما وإنتاجهما، كما يمكن أن يؤثر على تنشئة الأبناء، إضافة إلى إمكانية امتداد الخلاف إلى أُسرتي الزوجين، ناهيك عمّا يمكن أن يتركه من أثر سلبي على الأمن الأخلاقي للمجتمع، نتيجة التفكك الأسري، وانعكاس ذلك على السلوك الأخلاقي العام للزوجين.

لذلك لا يقبل الشرع أن يبقى المجتمع ساكتًا عن المشاكل الزوجية متفرّجًا عليها. والسبيل إلى المعالجة هو ما تقترحه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾، وقد ذهب مفسّرون إلى القول إنّ الأمر ﴿فَابْعَثُوا﴾ منوط بالحاكم الشرعي، فيما ذهب مفسّرون آخرون إلى اعتبار ذلك واجبًا كفائيًا على الواعين من أبناء المجتمع، في حين قال آخرون بأنّ مسؤولية ذلك تقع على عائلتي الزوجين. وتشير الآية بوضوح إلى أنّ أمر تحقيق الإصلاح يبقى مرهونًا بتوفّر الإرادة لدى الأطراف المعنية، سواء كان المقصود في الآية هما الزوجان أم الحكمان.

إرادة المصالحة

وعلى نطاق أوسع، يمكن القول إنّ استحكام حالة التعنّت، وغياب الإرادة في الإصلاح، عند أطراف الخلاف، هو ما جعل ساحتنا الإسلامية ساحة احتراب، ومسرحًا للمشاكل الاجتماعية والسياسية.

إنّ المجتمعات الحيّة التي تنعم بالاستقرار والسلم، لم يتأتَّ لها ذلك لولا إيمانهم بأهمية السلم الاجتماعي أولًا، واحتكامهم لسيادة القانون ثانيًا، إضافة لوجود مؤسسات معزّزة للسلم المجتمعي، وذلك بخلاف الحال في مجتمعاتنا الإسلامية، التي أصبحت ساحة احتراب واضطراب، فلا يكاد يوجد بلد إلّا ويرزح تحت وطأة مختلف المشاكل. مع انتماء هذه الأمة للقرآن الكريم الذي يحمّل المجتمع كلّه المسؤولية عن محاصرة المشاكل ومعالجتها.

إنّ محاصرة المشاكل ومعالجتها أمر مرهون بتوفّر إرادة الصلح والإصلاح، كما يقول تعالى: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا﴾، غير أنّ افتقاد الرشد، وغياب الوعي، غالبًا ما يقود إلى المكابرة، وتعنّت مختلف الأطراف المتنازعة تجاه بعضها بعضًا، لتتلاشى عندها أيّ إرادة للإصلاح.

هناك شروط ينبغي التوفر عليها في سبيل تحقيق إرادة الإصلاح، ومعالجة المشكلات الاجتماعية. ويأتي في الطليعة منها: الرجوع إلى العقل، وحساب الخسارة والربح في كلّ خطوة، فأيّما عاقلٍ أعمل عقله، فسيجد أنّ النزاع والشقاق لن يعود بالخير على أيّ طرف.

إنّ أحد عوامل تسعير النزاعات، هو نزوع بعض الأطراف إلى التفكير غير العقلاني، ورهان كلّ طرف على حسم النزاع لمصلحته، على حساب منافسيه وخصومه، إنّ الساحة العالمية تشهد تداخلًا كبيرًا على صعيد إدارة الصراعات، فلم تعد الصراعات المحلية في أيّ مكان معزولة عن الخارج، وإنّما بات الصراع

في أيّ منطقة عرضة لتدخل إرادات أخرى تساهم في تسعيره وتعميقه والاستثمار فيه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾، ومن هؤلاء الشياطين؛ تجّار الحروب، ومصنّعو الأسلحة الفتاكة، الذين حققوا أرباحًا خيالية نتيجة الصراعات المستعرة في منطقتنا العربية والإسلامية خلال هذه السنوات.

إنّ ما يعرف بكارتل صناعة السلاح، أسعد ما يكونون في حالات اندلاع الحروب والنزاعات، ولا يمكن أن يسمحوا لأحدٍ بالعمل على الحدّ من تجارتهم الفتاكة. ولعلّ أبرز مثال على ذلك النزاع بين الإدارة الأمريكية وكارتل صناعة السلاح في الولايات المتحدة، الذي له نفوذ قويّ في الكونغرس، فقد رفع الرئيس الأمريكي اوباما شعار الحدّ من اقتناء الأسلحة الفردية داخل أمريكا؛ نظرًا لتفاقم حالات سوء استخدام السلاح هناك، غير أنّ ذلك يصطدم بصخرة الكونغرس الخاضع لكارتل صناعة السلاح.

إنّ أيّ تفكير عقلاني سيقود بطبيعة الحال إلى الاستنتاج بأنّ المستفيد الأول من تفاقم الخلافات في الساحة الإسلامية هم أعداء الأمة.

أما الشرط الثاني فهو التوازن النفسي عند الأطراف المتنازعة. حيث يفقد المتنازعون غالبًا توازنهم النفسي، لتفسح المجال لسيطرة العقد النفسية، وحالات حبّ الانتقام، والرغبة في أخذ الثأر من الطرف المقابل، فلا يعود حينها التفكير عقلانيًّا، إنّما يصبح المتنازعون تحت سيطرة العواطف والانفعالات، لتغيب عندها أيّ إرادة للإصلاح.

ويتمثل الشرط الأخير في توفر البيئة المشجّعة على الصلح وإقامة السلم. إنّ هناك في الأمم الواعية بيئة مجتمعية، وأرضية ثقافية، تدفع باتجاه المصالحة وتحقيق السلم، والرغبة في الاستقرار، وعلى النقيض من ذلك في مجتمعاتنا الإسلامية. لدينا بيئة حاضنة للاحتراب، تدفع باتجاه النزاع، تارة تحت عناوين دينية، وأخرى بصفتها امتدادًا لصراعات التاريخ.

الخروج من مأزق الاحتراب

إنّ ديننا الإســـلامي يوجب أن نكون جميعًا دعاة أمن وسلم واستقرار. وهذا لن يتأتى ما لم تكن الأطراف المختلفة مستعدة لتقديم التنازلات المتبادلة، فإذا ما توفر هذا الاستعداد، ومن ثم التوجّه نحو معالجة الجذور الباعثة على اندلاع المشاكل، فإنّ من الممكن تحقيق حالة الصلح والاستقرار في مجتمعاتنا. بخلاف ما إذا أصرَّ كلّ طرف على اخضاع الطرف الآخر، فذلك ما يجعل من مهمّة تحقيق الاســتقرار مهمة عسيرة.

لقد تســببت حالات الاحتــراب القائمة فــي مجتمعاتنا فــي تداعيات مؤلمة كبيــرة. فقد تعطّلت التنمية، واســتهلكت الثروات، وعبئــت النفوس على بعضها بعضًا، وخُلقــت الاصطفافات وحالات التخندق تحت مختلف العناوين، وفقدت الأوطان الإسلامية أمنها واستقرارها، وباتت تُسفك الدماء في شوارعها على مدار الساعة، فإلى متى تستمر هذه الحالة المدمرة؟ وأين ذهب عقلاء الأمة؟ ولِمَ غابت المؤسســات التي يفترض بها تقديم مبادرات الصلح والسلام، أوليس هذا الجهد التصالحي منوط بمبادرات من منظمة التعاون الإســلامي، التــي تبدو الأمة اليوم أحوج ما تكون لدورها ومبادراتها؟

إنّ على منظمة التعاون الإسلامي أن تتحرك من أجل إطفاء الحرائق بين الدول الإســلامية، وبين الشــعوب والحكومات، وبين الطوائف وأتباع المذاهب. وعلى هذا النحو ينبغي أن يتحرّك علماء الدين والمفكرون والواعون. ولا شك أنّ المهمة ســتكون شــاقة نتيجة وقوع المصلحين دائمًا بين المطرقة والســندان، فكلّ طرف يضغط عليهم بوســائله الخاصة، حتى يصطفوا معــه ويكونوا إلى جانبه، لكن هذه المشقة والصعوبة لا تســقط الواجب عن عاتق الواعين الغيارى على مصالح الأمة ومستقبل شعوبها.

الحوار القرآني[1]

الأســتاذ محمد الشبيب: ســماحة الشيخ حســن الصفار، أهلًا وسهلًا بك في مؤسسة لقيت منكم الاهتمام والدعم والرعاية منذ بدء نشأتها... ونحن في مؤسسة علوم القرآن الكريم سعيدون بتشريفكم لهذا الحفل، والمؤسسة في مرحلة جديدة مــن مراحل نموها وتكاملها، وهي مرحلة منح شــهادة دبلوم علوم القرآن الكريم، ونتمنى أن يكون هذا اللقاء إن شــاء الله نواة للقاءات موسعة حسبما تتيح الفرصة، وحسبما يتيح وقتكم الثمين لكي نستفيد من توجيهاتكم ورعايتكم.

- **في البدء ســماحة الشــيخ ضمن زياراتكم العديــدة لكثير من الدول الإسلامية، واهتمامكم بالنشاط الإسلامي العام، والنشاط الاجتماعي، كيف ترون اهتمام العالم الإســلامي بالقرآن الكريم، وهل يرقى هذا الاهتمام إلى المســتوى المطلوب؟ وما هي النســبة في هجر القرآن الكريم؟ هل هي في تراجع أم في ازدياد سلبًا أو إيجابًا؟**

الشــيخ الصفــار: أود في البــدء أن أعبر عن بالغ ســروري وعميق ســعادتي بمشــاركتكم في هذا البرنامج القرآني الرائع، كما أســجل تقديري للإخوة الأعزاء

(١) ندوة قرآنية ضمن فعاليات الاحتفال بمناسبة افتتاح برنامج دبلوم علوم القرآن الكريم في مؤسسة علوم القرآن بأم الحمام بتاريخ ٢٦ جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ الموافق ١٢ يوليو ٢٠٠٧م.

في مؤسسة علوم القرآن الكريم على ما يبذلونه من جهد، وما يقدمون من خدمات كبيرة لكتاب الله المجيد، وللمجتمع من خلال خدمتهم للقرآن، إنهم يستحقون كل شكر وتقدير، أسأل الله سبحانه وتعالى لهم عظيم الأجر والثواب، وأن يحقق على أيديهم الآمال والتطلعات.

بالنسبة للسؤال المطروح حول اهتمام العالم الإسلامي بالقرآن الكريم: نرى أن هناك اهتمامًا في ساحات كثيرة، وضمن مشاريع عديدة، بالقرآن الكريم، في مختلف بقاع العالم الإسلامي، ولكننا لو أردنا أن نرسم الصورة العامة لواقع العالم الإسلامي، لرأينا أنه في هذا العصر، وجِّهت إساءة كبرى للقرآن الكريم، لم يحدث أن وجِّهت مثلها في عصر من عصور الإسلام السابقة، في هذا العصر، عصر العولمة، وعصر تفتح العقول والأذهان، وعصر تعطش البشرية للينابيع الروحية الموجودة في القرآن الكريم، في هذا العصر بالذات، ابتليت الأمة بتيارات وتوجهات خلقت صورة مشوهة للقرآن والإسلام أمام الرأي العام العالمي، ولم تحصل في التاريخ الماضي جرأة على القرآن والإسلام على المستوى الثقافي والإعلامي، بهذا المستوى الذي حصل في هذا العصر، تجدون السياسيين والمثقفين في المجتمعات الغربية يتبارون في إظهار الإساءة إلى الإسلام، وقبل أيام لعلكم تابعتم خبر تكريم ذلك الكاتب الذي حاول تشويه القرآن والإسلام وسيرة رسول الله ﷺ المرتد سلمان رشدي، تكريمه من قبل أعلى المستويات في بريطانيا، حيث سلمته الوسام ملكة بريطانيا، وواضح أن هذا التكريم تكريم لدور الإساءة الذي قام به تجاه الإسلام، وقبل ذلك ما حصل في الدانمارك، بنشر الرسوم المسيئة إلى رسول الله، والكتابات التي تحصل في أمريكا، والتشويه الإعلامي عبر مختلف الوسائل، وكذلك كلما سمع العالم عن الأعمال الإرهابية التي تجري في مختلف أنحاء العالم، وأنه يكون خلفها أناس منتمون إلى الإسلام، ويتظاهرون بتقديس القرآن، هذا تشويه كبير، وأعتقد أن المعركة الكبرى اليوم، التي يجب أن يخوضها العالم الإسلامي، وأن يخوضها المسلمون في هذا العصر، يجب أن تكون

لإنقاذ القرآن وإنقاذ الإسلام من مختطفيه، الإسلام مختطف في هذا العصر من قبل تيارات التشدد والإرهاب، اختطفت الإسلام ورسمت له صورةً مشوهة أمام الرأي العام العالمي، قد يقول البعض إنها أيادي استعمارية، ومؤامرات استكبارية، هذا قد يكون صحيحًا، لكننا لا نستطيع أن نتجاهل أن هناك أرضيةً خصبة ساعدت على نمو هذه التيارات في أوساط المسلمين، لهذا نعتقد أن العالم الإسلامي بحاجة إلى جهد كبير في هذا العصر، حتى يرمم، و يتلافى التشويه الذي حصل لصورة الإسلام، ولقداسة القرآن أمام الرأي العام العالمي، ولا يصح لنا أبدًا أن نرضى عن أنفسنا لمجرد وجود بعض الأنشطة القرآنية داخل مجتمعاتنا الإسلامية، إننا لا نستطيع أن نرمم هذا الضعف الذي حصل في سمعة الإسلام والقرآن أمام العالم، إلا إذا أطلقنا حملةً واسعةً، يجهر فيها العدد الأكبر من علماء الإسلام بآرائهم ضد الإرهاب، وضد التخلف والاستبداد، بحيث يرى العالم الغربي الصورة الصحيحة للإسلام والمسلمين، صورتنا أصبحت مخجلة أمام العالم، بسبب هذه التوجهات الإرهابية المتشددة المتطرفة، إذًا مع التقدير للأنشطة القرآنية الموجودة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، من اهتمام بطبع القرآن، إلى اهتمام بحفظ القرآن، وتلاوة القرآن، وترتيله، لكن ذلك كله ليس في مستوى التحدي، ولا يستطيع أن يغيِّر الصورة المشوهة التي ارتسمت للإسلام والقرآن.

■ **الأستاذ محمد الشبيب: سماحة الشيخ كيف تقومون مدى الاهتمام بالقرآن في أوساط أتباع أهل البيت؟**

الشيخ الصفار: لا بُدّ أن نعترف أن هناك قصورًا وتقصيرًا كبيرين، على مستوى حوزاتنا العلمية، ومجتمعاتنا، وهذا ليس اتهامًا من أحد يوجه للحوزات العلمية، وإنما هو اعتراف وإقرار من علماء كبار في حوزاتنا العلمية، لاحظوا هذا التقصير، ودعوا إلى تجاوزه ومعالجته، في حوزاتنا العلمية لم يأخذ القرآن الكريم المكانة التي يجب أن يأخذها في مجتمع ينتمي إلى الثقلين كتاب الله وعترة رسول الله

ﷺ، كما قال رسول الله ﷺ فإن التمسك ينبغي أن يكون بهما «فإنكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي»، وأهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام كانوا يأمروننا أن نعرض أحاديثهم، وما ورد عنهم على القرآن الكريم، وأعتقد أن بعض ما تسرَّب إلى تراثنا الشيعي من أخطاء ومن غلو، من أسبابه الرئيسة ضعف الثقافة القرآنية، وعدم محورية القرآن، ليس على نحو العموم، وإنما على نحو الأغلب، لو أننا في الأحاديث والروايات والعادات والتقاليد، عرضنا كل ما في تراثنا على القرآن الكريم، لاستطعنا أن نميِّز بين كثير من الغث والسمين، بين الصحيح والخطأ، بين ما ينبغي أن يقبل وما لا يقبل، أئمتنا عليهم أفضل الصلاة والسلام حذرونا من أن هناك كذبًا كثيرًا عليهم، من أن هناك دسًّا في كتبهم، كما روى هشام بن الحكم أنه سمع أبا عبد الله ﷺ يقول: (لاَ تَقْبَلُوا عَلَيْنَا حَدِيثَنَا إِلاَّ مَا وَافَقَ اَلْقُرْآنَ وَ اَلسُّنَّةَ، أَوْ تَجِدُونَ مَعَهُ شَاهِدًا مِنْ أَحَادِيثِنَا اَلْمُتَقَدِّمَةِ، فَإِنَّ اَلْمُغِيرَةَ بْنَ سَعِيدٍ لَعَنَهُ اَللَّهُ دَسَّ فِي كُتُبِ أَصْحَابِ أَبِي، أَحَادِيثَ لَمْ يُحَدِّثْ بِهَا أَبِي، فَاتَّقُوا اَللَّهَ وَ لاَ تَقْبَلُوا عَلَيْنَا مَا خَالَفَ قَوْلَ رَبِّنَا تَعَالَى وَسُنَّةَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ)[1]، وبالفعل على الصعيد النظري العلمي، ليس عندنا كتب صحاح نعتمدها بالكامل، لعل من الفوارق الأساس بيننا وبين مدرسة إخواننا أهل السنة، أن عندهم بعض الكتب، اعتبروها صحاحًا كصحيح البخاري، وصحيح مسلم، ولكن علمائنا لم يعتبروا أيًا من الكتب والمجاميع الحديثية مقدسة، بحيث أن كل ما فيها صحيح، هناك بعض الآراء عند بعض علمائنا السابقين ترى صحة ما ورد في الكتب الأربعة: الكافي، والتهذيب، والاستبصار، ومن لا يحضره الفقيه، لكن رأي المحققين من علمائنا، وهو الرأي السائد عند فقهائنا، أن هذه المجاميع الحديثية يجب أن يخضع كل حديث فيها لقواعد علم الرواية والدراية، بناءً على ذلك كان ينبغي أن نعرض هذه الروايات والأحاديث على كتاب الله، وفق الضوابط العلمية، وبالتالي نميِّز ما بين هذه الروايات والأحاديث، وهذا في المجال الفقهي معمول به، في البحوث الفقهية نجد أن هناك دقة الفقهاء يبذلون جهودًا كبيرة، كل حكم شرعي يبحثون عن

(١) بحار الأنوار، ج٢، ص ٢٥٠.

آيات الأحكام فيه، ويبحثون عن الروايات، ويبحثون عن آراء الفقهاء، وبالتالي كل مسألة فقهية عندنا حولها تراكم علمي معرفي، على ما هنالك من ملاحظات في المسار الفقهي، لكننا نعاني مشكلة كبيرة في المجال العقدي والتاريخي، حيث لم تبذل جهود كافية لتمحيص تفاصيل المسائل العقدية والأحداث التاريخية، وتركت لهذا التراث المتراكم، وللآراء الدخيلة، وكذلك في المجال السلوكي والأخلاقي، كثير من القضايا الأخلاقية التي يعبر عنها بالمستحبات والسنن بناءً على قاعدة التسامح في أدلة السنن، لم يجر البحث في كثير منها، ولم تحصل محورية لآيات القرآن الكريم على هذا الصعيد، لذلك تجد في بعض الأحيان تُقدم بعض الروايات والأحاديث الضعيفة على آيات قرآنية محورية، وهذا ما رفضه أئمتنا أهل البيت صلوات الله وسلامه عليهم، حيث قدموا قيمة الوحدة مثلًا، وقيمة العدالة، وقيمة الحرية، هذه القيم الأساس التي ينادي بها القرآن على كثير من القضايا الجانبية.

■ **الأستاذ محمد الشبيب: بالتحديد في منطقة القطيف الكثير من المؤسسات القرآنية التي وجهتم قبل سنوات إلى ضرورة توحيدها، وتوحيد المسمى، وطباعة المناهج، وإقامة المسابقات الموحدة، ما هي توصياتكم في هذا المحفل في هذه المؤسسة؟**

الشيخ الصفار: لأنكم أشرتم إلى هذا الاقتراح أود التوضيح، إننا في محافظة القطيف لدينا أنشطة في مختلف المجالات في مدننا وقرانا، وهذا أمر جيد وممتاز، نحن بحاجة إلى مرحلة جديدة، أن تصبح عندنا مؤسسات كبيرة في كل مجال على مستوى المحافظة، وتكون لها فروع في مختلف المناطق، مثلًا النشاط القرآني جميل أن تكون عندنا في كل مدينة وقرية مؤسسة قرآنية، ولكن ينبغي أن تكون مؤسسة مركزية على مستوى المحافظة، بحيث تصبح هذه المؤسسات القرآنية أشبه بالفروع لها وضمن هذه المؤسسة القرآنية على مستوى محافظة القطيف، يكون هناك تعاطٍ على المستوى الوطني والعالمي، وتعاون في المناهج، لا أعتقد

أنه من المناسب أنه يكون لكل قرية منهج خاص يختلف عن القرية الأخرى، أو برامج خاصة، يحتاج أن نفكر في هذه المحافظة كمنطقة، وكوحدة اجتماعية، وتكون عندنا مؤسسات مركزية لمثل هذه المجالات، فعلى مستوى المملكة يوجد مؤسسات قرآنية ضخمة، الدولة تتعاطى معها، والعالم يتعاطى معها، نحن لا نستطيع أن نتعامل على مستوى مؤسسات جزئية في كل قرية، هذا مقترح قابل للنقاش، نحتاج إلى مؤسسة مركزية، يتم فيها تراكم الخبرة والتجربة، ويتم عبرها التعامل على المستوى الوطني والعالمي، مثلًا نحن بحاجة إلى موقع الكتروني قرآني، تشترك فيه مختلف الطاقات والقدرات، بحيث يكون موقع على المستوى العالمي، كما نرى موقع إسلام أون لاين، وموقع الإسلام اليوم، مواقع ضخمة، يعمل فيها عشرات الأفراد إن لم يكن مئات الأفراد، ولها ملايين الزائرين، ولا يصح أن نكتفي بمواقع صغيرة على مستوى قرانا ومناطقنا، بحيث يشتغل بها شخصان أو ثلاثة، ويدخل عليهم مئة أو مئتا زائر، هذا مستوى ينبغي أن نتجاوزه، نحتاج إلى موقع الكتروني قرآني يعبر عن كل المنطقة، وتشترك فيه كل الجهود، كذلك بالنسبة إلى المجلات، نحن بحاجة إلى مجلة قرآنية مركزية، تعبر عن المستوى الرفيع في دراساتنا القرآنية، وهذا يحتاج أن نقتنع بهذه الفكرة إن وجد أنها فكرة صالحة، وإلى أن نتحلى بالمرونة النفسية، بحيث نتجه إلى الهدف، وإلى المقصد الأساس، وليس مسألة الانتصار لقريتي ولجماعتي، بمقدار ما نسعى لإظهار هذه المنطقة بالمظهر اللائق، وتكريس الخبرات والتجارب فيها.

■ **الأستاذ محمد الشبيب: قبل ختام الحوار، سماحة الشيخ هنالك العديد من التفاسير عند الشيعة والسنة، على الصعيد الشخصي إلى أي هذه التفاسير ترجعون عادة عند البحث حول آيات الكتاب المجيد؟**

الشيخ الصفار: أنا شخصيًّا في أي آية، ارجع إلى مجموعة من التفاسير، وفي بعض الأحيان حينما أحتاج إلى تعمق أكثر في الآية الكريمة، فإنني ارجع إلى

مجموعة أكبر من التفاسير.

على المستوى الشيعي، أرجع إلى تفسير الميزان للسيد الطباطبائي، وتفسير الأمثل للشيخ مكارم الشيرازي، وتفسير من هدى القرآن للسيد المدرسي، وتفسير من وحي القرآن للسيد فضل الله، أما إذا كانت آيات أحتاج فيها إلى بحث أكثر، فإنني أرجع إلى عدد أكبر من التفاسير، كتفسير السيد السبزواري، وتفسير الدكتور الصادقي، وتفسير مجمع البيان، وتفسير الشيخ محمد جواد مغنية، أما في تفاسير إخواننا أهل السنة، فإنني عادة ما أرجع إلى تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور، وإلى تفسير الشيخ السعدي باعتباره يعبر عن وجهة النظر السلفية في المملكة، لذلك أحرص على الرجوع إليه، وإلى تفسير في ظلال القرآن للسيد قطب، وحينما تكون الآية تحتاج إلى بحث أكثر أرجع إلى الفخر الرازي، والطبري، والآلوسي، وسائر التفاسير.

المصادر

- القرآن الكريم.
- ابن أبي الحديد: عز الدين عبد الحميد، شـــرح نهج البلاغة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، (بيروت: دار الجيل).
- ابن سعد: محمد بن ســـعد بن منيع الهاشـــمي، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القـــادر عطا، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـــ ، (بيروت: دار الكتب العلمية).
- ابن شـــعبة الحراني: الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول، الطبعة الخامسة١٩٧٤م، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات).
- ابن عبدالبر: يوسف بن عبد الله بن محمد، الاستيعاب في معرفه الأصحاب، المحقق: علي محمد البجاوي
- الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، (بيروت: دار الجيل).
- ابن كثير: إسماعيل القرشي، تفسير القرآن العظيم، طبعة ١٤٣٦هـ، (بيروت: دار الكتاب العربي)

- ابن هشام: عبدالملك، السيرة النبوية، الطبعة الأولى١٤١٥هـ، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).
- الألباني: محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ، (بيروت: المكتب الإسلامي).
- الألباني: محمد ناصر الدين، صحيح الجامع الصغير وزيادته، طبعة ١٤٠٨، (بيروت: المكتب الإسلامي).
- الآلوسي: السيد محمد شكري، روح المعاني في تفسير القرآن، طبعة ١٤٢٩هـ، (القاهرة: دار الحديث).
- البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، طبعة ١٤٢٠هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية).
- البروجردي: آقا حسين، جامع أحاديث الشيعة، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، (قم المقدسة).
- البغدادي: عبدالقادر بن عمر، خزانه الأدب ولب لباب لسان العرب، (القاهرة: مكتبة الخانجي).
- البغوي: محمد الحسين بن مسعود ، معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).
- الترمذي: محمد بن عيسى، سنن الترمذي، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية).
- التميمي: عبدالواحد الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، طبعة ١٤١٠هـ، (بيروت: دار الكتاب الإسلامي).
- الحافظ المنذري. صحيح الترغيب والترهيب، تحقيق محمد ناصر الدين

الألباني، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ، (بيروت: المكتب الإسلامي).

- الحر العاملي: محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، (بيروت: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث).
- خالد: خالد محمد. رجال حول الرسول، طبعة ١٤٢٢هـ، (بيروت: دار الفكر).
- الروحاني: السيد محمد، منهاج الصالحين، ، الطبعة الثانية، (بيروت: دار الزهراء).
- الزحيلي: وهبة، الفقه الاسلامي وأدلته، ، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ، (دمشق: دار الفكر).
- زين العابدين: علي بن الحسين، الصحيفة السجادية.
- الشيرازي: ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، طبعة ٢٠٠١م، (قم المقدسة: مدرسه الإمام على بن أبى طالب).
- الصدوق: الخصال، صححه وعلق عليه: علي أكبر الغفاري، طبعة ١٤٠٣هـ، (قم المقدسة: منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية).
- الصدوق: محمّد بن علي بن بابويه القمّي، من لا يحضره الفقيه، تحقيق: علي أكبر الغفّاري، الطبعة الثانية (قم المقدسة: جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية).
- الصفار: محمد بن الحسن، بصائر الدرجات في فضائل آل محمد، (طهران: منشورات الأعلمي).
- الطباطبائي: السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات).

- الطبراني: سليمان بن أحمد، كتاب الأوائل، الطبعة الأولي ١٤٠٣هـ، (بيروت: موسسة الرسالة).
- الطبرسي: أحمد بن علي بن أبي طالب، الاحتجاج، الطبعة الثالثة ١٤٢٢هـ، (إيران: دار الأسوة للطباعة والنشر).
- الطبرسي: الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، ١٤١٥هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات).
- الطوسي: محمّد بن الحسن، الأمالي، طبعة ١٤١٤هـ، دار الثقافة.
- الطوسي: محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام، طبعة ١٩٨٥م، (طهران: دار الكتب الإسلامية).
- الفضلي: عبدالهادي، دروس في أصول فقه الإمامية، طبعة ١٤٢٨هـ، (بيروت: مركز الغدير للدراسات والنشر).
- القرطبي: أبو عبدالله محمد، تفسير القرطبي، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)
- الكليني: محمد بن يعقوب، الكافي، طبعة ١٤٠٥ه، (بيروت: دار الأضواء)
- الليثي ، علي بن محمد، عيون الحكم و المواعظ.
- المتقي: علاء الدين علي، كنز العمال، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ، (بيروت: مؤسسة الرسالة).

- المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).
- المطهري: مرتضى، محاضرات في الدين والاجتماع ، الطبعة الأولى

٢٠٠٠م، (بيروت: الدار الإسلامية).

- المفيد: محمَّد بن محمَّد بن النعمان، الاختصاص، تحقيق على أكبر الغفاري، الطبعة السابعة ١٤٢٥هـ، (قم: مؤسسة النشر الإسلامي).
- المفيد: محمَّد بن محمَّد بن النعمان، الارشاد في معرفة حجج الله على العباد، تحقيق مؤسسة آل البيت لتحقيق التراث، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ، (بيروت: دار المفيد).
- الموسوي: محمّد الرضي بن الحسن، نهج البلاغة، تحقيق الدكتور صبحي الصالح، (بيروت: دار الكتاب اللبناني).
- النوري: حسين بن محمد تقي بن علي، مستدرك الوسائل، الطبعة الثالثة ١٤١١هـ، (بيروت: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث).
- الواحدي: علي بن أحمد، أسباب نزول القرآن، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، (بيروت: دار الكتب العلميّة)
- ورام بن أبي فراس، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورام)، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات).
- صحيفة المدينة السعودية.
- صحيفة الجزيرة السعودية.
- وكالة الأنباء السعودية https://www.spa.gov.sa
- موقع آراء حول الخليج. http://araa.sa/

المحتويات

مفتتح ٥

الفصل الأول: أفلا يتدبرون القرآن..... ٧

القرآن المهجور..... ١٥

القرآن شفاء..... ٢٩

القرآن موعظة..... ٣٣

الشباب والعودة إلى القرآن..... ٣٧

الفصل الثاني: مبادئ التعايش الإنساني ٤٣

لتعارفوا..... ٥٧

الفصل الثالث: ثقافة الرشد الاجتماعي..... ٦٥

حرية الرأي وتقدم المجتمع ٧٣

النقد الذاتي الاجتماعي ٧٩

الآلام والآمال بين الأقوال والأعمال ٨٥

الجرأة في طرح الآراء الإصلاحية ٩٣
المطفّفون والكيل بمكيالين ١٠١
المسؤولية الفردية واستقلال الشخصية ١٠٧
الفصل الرابع: في العلاقات الاجتماعية ١١٥
حسن الظن وأثره في العلاقات الاجتماعية ١٢١
التودّد إلى الناس ١٢٧
اللمز والتنابز من مساوئ الأخلاق ١٣٣
الغيبة وتدمير العلاقات الاجتماعية ١٤١
لا يسخر قوم من قوم ١٤٩
التجسس وهتك أسرار الآخرين ١٥٧
الصراعات الداخلية في المجتمع ١٦٣
معالجة الأزمات واطفاء الحرائق ١٦٩
الحوار القرآني ١٧٥
المصادر ١٨٣
المحتويات ١٨٩